

روايات مصرية للجيب
10
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
العرَّاف

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبداً ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهاراً .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حرباً أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بها سوى أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

وسام إسرائيلى ..
للإرهاب

وسام إسرائيلى .. للإرهاب

إسرائيل قرّرت منح الأوسمة ، لأبطال فضيحة لافون ..

خبر طالعتنا به الصحف ، منذ بضعة أيام ، وعلى نحو مباغت ، يخالف كل الأعراف والنظم الدولية ، والمنطقية ، والمخابراتية أيضًا !!

وقبل أن نناقش الخبر (العجيب) ، لابد وأن نعود عبر الزمن ، إلى ما يزيد بعام عن نصف قرن مضى ؛ لنعرف ما هى فضيحة لافون هذه ..

ففى صيف ١٩٥٤م ، ذروة الصراع على السلطة ، بين (عبد الناصر) و(محمد نجيب) ، وذروة الارتفاع فى درجات الحرارة ، اندلع حريق مباغت ، فى مكتب بريد الإسكندرية ، وهرعت إليه سيارات الإسعاف والنجدة ، لتبدأ قضية مثيرة وعجيبة للغاية ..

فبعد فحص فنى ، ومعاينة دقيقة ، من الصاغ ـ اللواء فيما بعد ـ (ممدوح سالم) ، تبين أن الحريق لم يكن عشوائيًا ، أو وليد الحرارة الشديدة ، وإنما كان حريقًا متعمدًا ، عبر طردين مفخخين بمواد كيماوية شديدة الاشتعال ، وكل منهما

يحوى جراب منظار ، من محلات (مارون أياك) ، ويحملان عنوانين وهميين ، مما يؤكد أن مرسلهما كان يعلم جيدًا متى سيشتعلان ..

وأين ..

حدث هذا فى الثانى من يوليو ، واتجهت الاتهامات مباشرة ـ وكالمعتاد أيامها ـ إلى الشيوعيين والإخوان المسلمين ، وبدأت التحريات بالفعل ، من ذلك المنطلق ..

وفى الرابع عشر من يوليو ، دخل شابان وفتاة مكتبة المركز الثقافى الأمريكى فى الإسكندرية ، وانشغل رواده بالتطلع إلى صدر الفتاة الناهد ، شبه المكشوف ، ولم ينتبه أحدهم إلى جراب المنظار ، الذى يحمله أحد الشابين ، والذى تعمد أن يتركه فى ركن غير ملحوظ من أحد رفوف المكتبة ، قبل أن ينصرف الثلاثة فى سرعة ، دون أن يطالعوا كتابًا واحدًا ..

وبعد خمس وأربعين دقيقة ، تلقى الصاغ (ممدوح سالم) بلاغًا بنشوب حريق ، فى المركز الثقافى الأمريكى بالقاهرة !!

كانت الخسائر متوسطة ، بمقياس ذلك الزمان ، إلا أن الذى لفت انتباه (ممدوح سالم) بشدة ، هو وجود جرابين من

النوع نفسه ، فى كل من المركزين ، على نحو يؤكد أن هناك جهة منظمة ، وراء تلك الحوادث المتتالية ..

ومرة أخرى اتجهت الشبهات نحو الشيوعيين ، والإخوان المسلمين ، باعتبار أن كليهما ضد الثورة ، وضد (جمال عبد الناصر) شخصيًا ..

وبدأت عملية إعداد الاتهامات ، ولائحة المتهمين بالفعل ، و ...

ولكن كانت هناك مفاجأة مدهشة ، فى انتظار الجميع ، فى الذكرى الثانية للثورة ، أى فى الثالث والعشرين من يوليو ..

ففى تلك الليلة ، كان اليوزباشى (حسن المناوى) ، معاون مباحث قسم العطارين ، يمر أمام سينما ريو ، عندما فوجئ بشاب يندفع خارجها ، والنار تمسك بسراويله ، والناس خلفه ، تحاول مساعدته على إطفائها ، فاندفع الضابط نحوه بمنتهى الشهامة ، وعاونه على إطفاء النيران ، قبل حتى أن يسأله عما حدث ..

وكان من الممكن أن يمضى الأمر دون أن يتوقف أحد ، خاصة وأن الشاب قد أقنعهم بأن علبة الثقاب قد خالفت قوانين الفيزياء ، واشتعلت فى جيبه تلقائيًا ، لولا أن سقط منه جراب منظار ، يحمل اسم (مارون أياك) ، وتناثرت منه مادة تشبه الفحم المسحوق ..

ومع محاولته للفرار ، أدرك معاون المباحث أن الشاب يخفى شيئًا ما ..

وكانت البداية ..

وفى خلال ساعة واحدة ، كان رجال المباحث العامة ـ أمن الدولة فيما بعد ـ قد انقضوا على الشاب ، (فيليب ناتانسون) ، وانتزعوا منه الكثير .. والكثير جدًا ..

وبسرعة مدهشة ، ومع الاعترافات التى أدلى بها (ناتانسون) ، تم إلقاء القبض على شريكيه ، وهما (فيكتور ليفى) و(روبير داسا) ، والمدهش كما تبين فيما بعد ، أن (فيكتور) كان يحمل بالفعل قنبلة ثانية ، يفترض دسها فى سينما أمير ، ولكنه قرّر تأجيل هذا ، بعدما شاهد ما أصاب زميله ، بل ووقف يتابع موقفه وسط المارة ، دون أن يعلن أحدهما معرفته بالآخر ، حتى تم حمل (ناتانسون) إلى المستشفى ، فانصرف هو إلى منزله ، متصورًا أن جهات الأمن المصرية لن تنتبه أبدًا إلى حقيقة الأمر !!

وعند استجوابهم ، اشترك (فيكتور) و(روبير) مع (ناتانسون) فى قصة وهمية ، تم تدريب ثلاثتهم عليها ، شأن أى جواسيس محترفين ، وتشير إلى أنهم مجرد شباب مصرى

غاضب ، من التواجد الأمريكى البريطانى فى مصر ؛ لذا فقد سعوا إلى مهاجمة مصالح الدولتين ، لتوجيه رسالة غضب إليهما ، بأنهما غير مرغوب فيهما فى مصر ..

وكان من الممكن أن يمضى الأمر على هذا النحو بالفعل ، وأن تغلق القضية على هذا ، باعتبار أنها لم تكن سوى لعب عيال ، لولا أن أحدهم قد عثر خلف برواز زجاجى فى منزل (ناتانسون) على ميكروفيلم ، تمت معالجته بوسائل بدائية ، وبصعوبة بالغة ، ليتبين أنه يحوى تفاصيل تركيب القنابل الحارقة ، واستعمالها ، وطرق التراسل باللاسلكى ، وشفرته ، وتركيب دائرته ، وطرق الاتصال بالآخرين ، مع عنوان مراسلات فى باريس ..

باختصار ، كان دليلاً قاطعًا ، على أن السلطات أمام عملية جاسوسية مائة فى المائة ..

وهنا انقلبت الصورة رأسًا على عقب ، أو أنها قد اتضحت بشدة ، وأدركت جهات التحقيق أنها أمام عملية جاسوسية ، دون أدنى شك ..

ومع وضوح الصورة ، اتخذت التحقيقات مسارًا مختلفًا ، راحت معه الحقائق تتكشف فى سرعة مدهشة ، وبدأ أفراد الشبكة يتساقطون ، واحدًا بعد الآخر ..

سقط (صمويل عازرا) ، ثم (ماير ميوحاس) ، وبعدهما (فيكتور ليفى) ، و(موسى ليتو مرزوق) ، و(فيتكورين) أو (مارسيل نينو) ، و(ماكس بنيت) ، و(إيلى نعيم) ، و(يوسف زعفران) ، و(سيزار كوهين) ، ونجح اثنان فى الفرار ، وهما (بول فرانك) ، وزعيم الشبكة وقائدها (جون دارلنج) ، أو (إبراهام دار) ..

ووسط صخب إعلامى شديد فى مصر ، واستنكار وعدم تصديق من المجتمع الإسرائيلى ، تمت محاكمة شبكة المخربين ، وصدر الحكم بإعدام (موسى مرزوق) و(صمويل عازرا) وبالأشغال الشاقة المؤبدة على (فيكتور ليفى) و(فيليب ناتانسون) ، والأشغال الشاقة لخمسة عشر عامًا على (مارسيل نينو) و(روبير داسا) ، ولسبع سنوات على (ماير زعفران) و(ماير ميوحاس) ، وتبرئة الباقين ..

ومن المدهش أنه من بين الذين تمت تبرئتهم (إيلى حوفى كوهين) ، والذى تم زرعه فى سوريا فيما بعد ، من قبل المخابرات الإسرائيلية ..

ولأنه كان من الضرورى أن تبرر القيادة الإسرائيلية لشعبها ما حدث ، فقد قررت إلصاق تبعية الأمر كله إلى وزير الدفاع - آنذاك - (بنحاس لافون) ، الذى أجبر على الاستقالة ، ليحمل العار إلى الأبد ، متمثلاً فى الاسم الذى اقترن بالعملية الفاشلة ، حتى يومنا هذا ..

مذكرات 10

رجل مخابرات

الجانب الآخر

فضيحة (لافون) ..

وعلى الرغم من كل هذا ، تقرر إسرائيل منح الأوسمة لمن شاركوا فى الفضيحة !!

ووفقًا للتعريف العالمى ، الذى صاغه أنصار إسرائيل ، فالإرهابى هو الشخص ، الذى يأتى أعمالاً ، من شأنها تخريب المنشآت ، وترويع الآمنين ..

فما الذى فعلته تلك الشبكة اليهودية التخريبية بالضبط ؟!

ألم تسع لتخريب المنشآت ، وترويع الآمنين ؟!

ألا ينطبق عليها ، والحال هكذا ، مصطلح الإرهاب وتعريفه ؟!

إذن فالعقل ، والمنطق ، والقانون ، والعرف ، والنظم الدولى ، والتعريف العالمى ، يجعل أفراد فضيحة (لافون) إرهابيين ، على نحو لايقبل الشك ، مما يعنى أن إسرائيل ، والحال هكذا ، لم تعد دولة راعية للإرهاب فحسب ، ولكن مؤيدة وراعية ومكافئة له أيضًا !!

ولكن لاينبغى أن يدهشنا هذا ، مادام على رأسها إرهابىٌ أصيلٌ ، يعشق العنف ، ويتلذذ بالوحشية ، ويستعذب طعم الدم العربى ..

* * *



أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا .

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصوَّر حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

١٠ ـ الجانب الآخر

لدقيقة كاملة تقريبًا ، حدق عريض المنكبين فى وجهى ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ونحن نجلس فى مكتبه ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، ومال نحوى ، قائلاً :

ـ هل لك أن تكرِّر ما قلته مرة أخرى ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على تلك الرهبة ، التى تنتابنى دومًا ، كلما جلست قبالته ، وقلت مكرِّرًا :

ـ أريد رفع قيمة ذلك الجاسوس ، لدى الدولة الأجنبية ، التى يعمل لحسابها .

تساءل فى اقتضاب :

ـ ثم ؟!

أجبته فى سرعة :

ـ ثم أوقع عبره أى جواسيس آخرين .

مرة أخرى ، تطلَّع إلىَّ فى صمت ، ثم تراجع فى مقعده ، قائلاً :

- هل يمكنك أن تشرح لى الأمر أكثر .

لست أدرى لما انتابتنى سعادة جمة ، عندما سألنى تفسيرًا أكثر استفاضة ، حتى أننى شعرت بحماس عجيب ، وأنا أجيبه :

- من مطالعتى لبعض ملفاتنا ، علمت أنه لدينا عميل خامل ، فى نفس الدولة ، التى جندت ذلك الجاسوس ، وهناك شكوك قوية بأن ذلك العميل قد انقلب علينا ، وقرَّر التوقف عن العمل لحسابنا ، بعد أن حصل على مكافأة سخية .. وما أفكر فيه الآن ، هو أن أستخدم هذا الجاسوس لحرق العميل الخامل .

ارتفع حاجباه فى إعجاب واضح ، أثلج صدرى كثيرًا ، وهو يقول :

- إذن فستدرب الجاسوس ، الذى ألقينا القبض عليه ، على ادعاء الحصول على معلومات مهمة ، تشير إلى أن ذلك العميل الخامل يعمل لحسابنا ، وعندما يتحققون فى تلك الدولة عن الأمر ، سيكتشفون أن المعلومة صحيحة ، وستزداد لديهم قيمة جاسوسهم هذا ، ويرفعونه إلى مستوى متقدم .

تراجعت فى مقعدى ، وحاولت السيطرة على حالة الزهو التى انتابتنى ، وأنا أقول :

- ما آمله ، هو أن يبلغ المستوى الأخير .

انعقد حاجباه فى تساؤل ، فأضفت فى حماس :

- مستوى الجاسوس المقيم .

ارتفع حاجباه لحظة ، ثم عادا ينخفضان ، وهو يقول :

- والجاسوس المقيم هو أعلى رتب الجواسيس .

هتفت فى حماس :

- ليس هذا فحسب ، ولكنه المسئول عن كل الجواسيس والعملاء فى منطقته أيضًا ، ومحور الارتكاز الرئيسى لكل شبكات التجسس من حوله .

ثم ملت نحوه ، وتضاعف حماسى ، وأنا أضيف :

- لو عملنا على أن ترتفع رتبة الجاسوس إذن ، وأحكمنا السيطرة عليه ، وتطويعه للعمل لحسابنا ، فسيمكننا عبره ، خلال عام أو عامين ، أن نكشف مجموعة كبيرة من الجواسيس المماثلين فى نطاقنا .

حك عريض المنكبين ذقنه بضع لحظات ، قبل أن يشير بيده ، قائلًا :

ـ الجاسوس بطبعه شخص خائن ، لا يمكن ضمان ولائـه ، وتطويعه لمهمة كهذه لن يكون بالأمر السهل .

هززت كتفى ، قائلاً :

ـ ومن قال إن عملنا ينشد السهل ؟!

اتسعت ابتسامته ، وبدت لى أشبه بوسام نصر ، وهو يقول :

ـ على بركة اللّه إذن .

ولأن القرارات الخطيرة كهذا ، لا يمكن أن تتخذ بصورة فردية ، فى أى جهـاز مخابرات فى العـالم ، فقد طلبت عقد اجتماع ، مع مجموعة من الخبراء ، من بينهم عريض المنكبين ، وحضره ـ أيضًا ـ وجـه القنفذ ، حيـث طرحـت فـكرتى ، ورحـت أناقشـها معهم لأربع ساعات كاملـة ، قبل أن تنال موافقتهم ، مع بعض التحفظات والتوجيهات البسيطة ..

وكان علىَّ أن أبدأ مرحلة التنفيذ ..

ووفقًا لنظام العمـل الدقيق ، كنـا قد قمنا بتغطيـة غيـاب الجاسوس عن عمله ، تحسبًا لما يمكن أن يسفر عنـه الأمـر ؛ لذا فقد اجتمعت معـه على الفور ، ولـم يكن قد فارق بعد حالة الانهيار التى أصابته ، منذ إلقاء القبض عليه ، ولقـد

تعمـدت أن أتركـه أمـامى ، فى حالتـه هـذه لبعض الوقت ، قبل أن أسأله ، فى شىء من الصرامة :

ـ هل تشعر بالندم ؟!

أومأ برأسه فى مرارة ، وهو يجيب :

ـ وبالضياع أيضًا .

تراجعت فى مقعدى ، وعقدت أصابع كفى أمام وجهـى ، قائلاً :

ـ وماذا لو أن لديك فرصة للتكفير عما فعلت ؟!

انسدلت الدموع من عينيه ، وهو يغمغم :

ـ بالسـجن ؟!

ملت نحوه ، قائلاً فى حزم :

ـ بل بالتعـاون .

كان قولى هذا أشبه بطوق نجاة ، تلقاه الرجل وسط بحر ثائر ، متلاطم الأمواج ؛ لـذا فلم يكد يسمعه ، حتى هتـف ـ بكل لهفة الدنيا ـ :

- أنا مستعد لفعل كل ما تريدون .

وبالنسبة لنا ، لم يكن قوله هذا كافيًا ، لتأكيد استعداده الفعلى للتعاون ؛ لذا كان علىَّ إخضاعه لسلسلة طويلة من العمليات والتدريبات ، والاختبارات أيضًا ؛ للتأكد من استعداده ، وولائه ، وقدرته على لعب الدور الصعب ، الذى سيسند إليه ..

كان عليه أولاً أن يبقى على اتصالاته مع جهاز مخابرات الخصم ، على نحو لا يمنحهم أدنى شك فى أمره ، وفى استمرار تعاونه معهم ، وفى الوقت ذاته كان عليه الخضوع لعدة جلسات نفسية خاصة ، تستهدف فى مرحلتها الأولى تحييده ، وفى الثانية جذبه ، وفى الثالثة تأكيد استعداده ..

والواقع أن الرجل قد أبدى تعاونًا تامًا ، باعتبارها أفضل فرصة يمكن أن يحصل عليها ، فى موقفه هذا ، وكان يكفيه أن يعود إلى منزله ، ويقضى ليلته بين أسرته ، ثم يعود فى الصباح ، ليتلقى تدريباته ..

ولقد أفادتنا كثيرًا التدريبات ، التى تلقاها فى جهاز المخابرات المضاد ، والتى أهلته للعب دوره ، ثم استغللناها نحن لنوجه به ضربتنا إليهم ..

وتحويل ولاء جاسوس ، ليس بالأمر السهل أو الهين ، أو حتى المضمون ؛ لذا فهو يستغرق فترة طويلة للغاية ، ويحتاج إلى رجل مخابرات متفرغ طوال المرحلة ..

ولقد احتاج منا هذا إلى ستة أشهر كاملة ، بلغ الإرهاق فى خلالها مبلغه ، حتى إننى فوجئت ذات يوم بوجه القنفذ إلى جوارى ، يقول فى إشفاق ، امتزج برصانته المعهودة :

- أظنك تحتاج للراحة .

انتبهت ، فى تلك اللحظة فقط ، إلى أننى قد غفوت على مقعدى ، فانتبهت متوترًا ، وأنا أقول :

- لا بأس .. إنها غفوة بسيطة .

تمتم فى رصانة :

- الغفوة قد تعنى الكثير ، فى هذا العالم .

شعرت بالحرج لقوله ، واعتدلت على مقعدى ، وأنا أسأله فى شىء من الصرامة ، أردت أن أخفى بها حرجى :

- هل وصلت آخر تقارير المتابعة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، برصانته التى تستفزنى أحيانًا ، ووضع أمامى ملفًا كبيرًا ، وهو يقول :

- الخبراء يقولون إنه صار مؤهلاً .

التقطت نفسًا عميقًا فى ارتياح ، وأنا أقول :

- عظيم .. يمكننا أن نبدأ مرحلة التنفيذ إذن .

ومرحلة التنفيذ هذه ليست خطوة واحدة ، كما قد يبدو من منطوقها ، وإنما هى عدة مراحل ، مدروسة بمنتهى الدقة ، بحيث تنجح فى خداع الجانب الآخر ، وتجعله يرى تطور الموقف منطقيًا تمامًا ..

فى البداية تمت ترقية الرجل ، ونقله إلى منصب يتيح له الاطلاع على مزيد من المعلومات والأسرار ، باعتبار أن هذا سيحقق هدفًا مزدوجًا ؛ إذ سيقتنع الجانب الآخر أنه ما زال فوق مستوى الشبهات ، كما سيبرر فى الوقت ذاته تصاعد أهمية ما يرسله لهم ..

ثم بدأت مرحلة تطوير المعلومات تدريجيًا .

وكان من الواضح أن تلك المرحلة قد جذبت انتباه الخصوم بشدة ؛ إذ راحوا يطالبون الرجل بالمزيد من المعلومات ، فى نهم شديد ، إلا أننا حرصنا طوال الوقت ، على أن نمنحهم قدرًا محسوبًا منها ، لا يشبع نهمهم ولا يوقف لهفتهم فى الوقت ذاته ..

وعندما حانت اللحظة المناسبة ، بدأنا فى إرسال المعلومات الخاصة بعميلنا الخامل ، إلى الجانب الآخر ..

وكانت صدمة لهم ..

صدمة قوية ..

وبسرعة ، تحركوا ، وحاصروا العميل ، وأوقعوا به ..

واحترق ذلك العميل ..

احترق ليضىء الطريق أمام رجلنا ..

وعبر مصدر داخلى ، تلقى الرجل مكافأة سخية ، عن تلك المعلومات الخطيرة جدًا ، مما جعلنا نتأكد من وجود جواسيس آخرين داخل أرضنا ، لم نكتشف أمرهم بعد ..

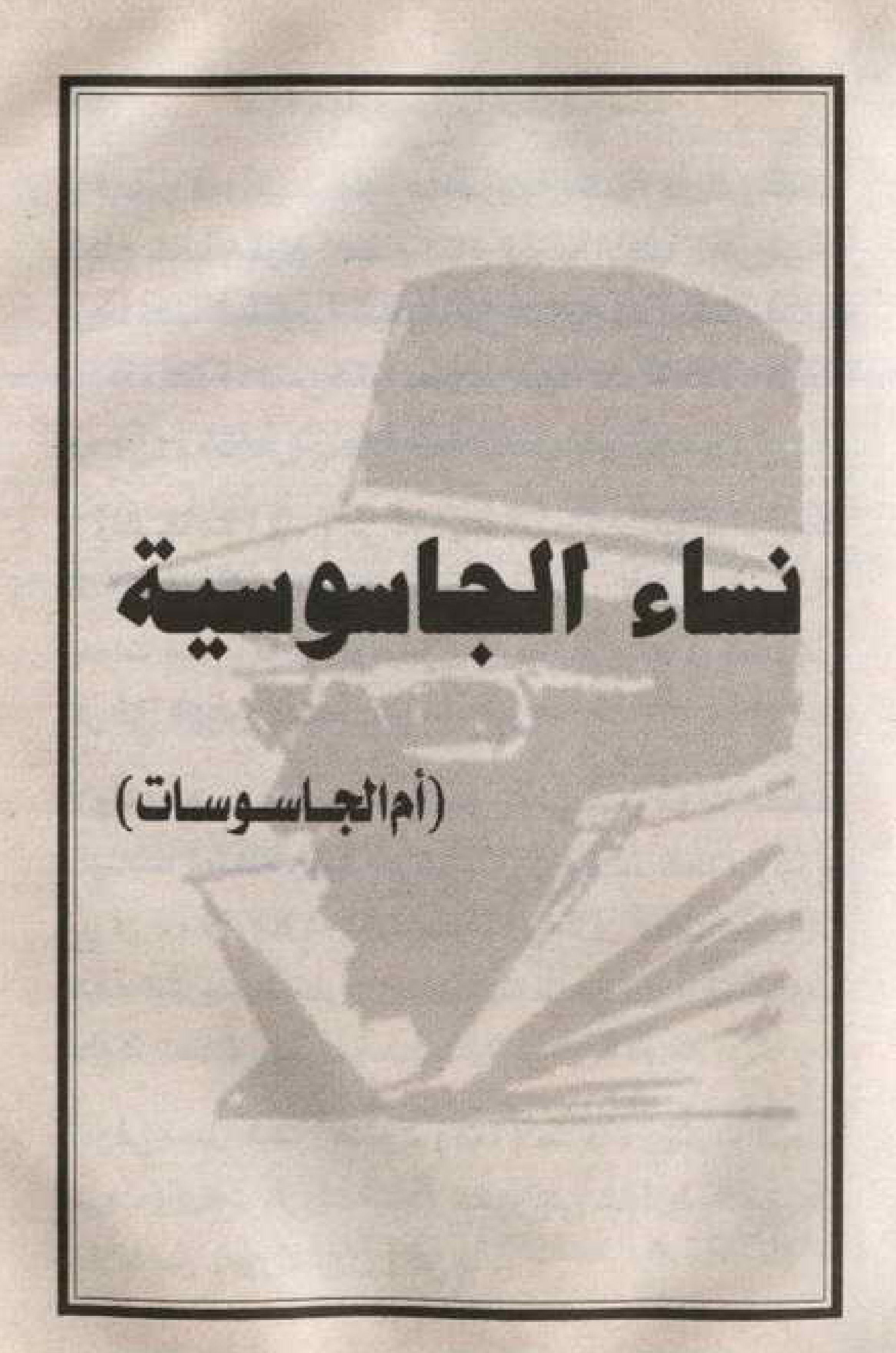
ولكن ، وعلى الرغم من سعادتهم ، لم يكن رجال الجـانب الآخر من البسطاء أو السذج ، فقـد تصرفـوا كمـا ينبغـى أن يكون عليه المحترفون ..

واستدعوا جاسوسهم إلى إحدى الدول الأوربية ..

وكانت هذه أخطر مرحلة فى العملية كلها ..

على الإطلاق .

* * *



إيماس إدموندز .. جاسوسة أمريكية ، كندية المولد ، عملت بنجاح خلف خطوط الحلفاء أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وربما كانت الجاسوسة الوحيدة فى التاريخ التى كانت تعمل ، فى هذه الفترة ، التى كانوا يعتبرون فيها المرأة مجرد مربية وزوجة ، وخادمة منزلية فحسب ..

ولقد جاءت (إيما) إلى الولايات المتحدة من نيو برانز ويك بكندا فى عام ١٨٥٦م ، عندما بدأت الحرب الأهلية الأمريكية ، وحملت اسم (فرانك تومبسون) وتطوعت للعمل كممرض ذكر فى الجيش المتحد ..

ولقد حضرت (إيما) المعركة الأولى بين قوات الحلفاء والولايات المتحدة وهى معركة بل رن (Bull Run) « جرى الثيران » ، أول معركة قامت بينهما ، وبعد أن قضت عامين فى خدمة التمريض ، تطوعت بعد ذلك للعمل كجاسوسة خلف خطوط الحلفاء ..

وفى سبيل هذا ، صبغت (إيما) جلدها ، وتنكرت كشاب أسود ، وارتدت باروكة شعر ؛ للعبور إلى الخطوط الأمامية ، بالقرب من (يورك تاون) فى فا ..

وعلى الرغم من تظاهرها بأنها رجل أسود حر ، إلا أن المشرف حين رآها ، كلفها بالعمل فى حصون الحلفاء ، وبعد يوم من العمل الشاق ، استطاعت أن ترسم سكتشًا للحصون ، وتحصى المعدات الموجودة بها ..

فى اليوم التالى كانت تحمل الماء للعمال والطعام للقوات ، ومع كونها تحت المراقبة عندما عملت كخفير إلا أنها استطاعت فى ليلة ممطرة أن تتراجع للخطوط الأمريكية ، حاملة معها بندقية من بندقيات الحلفاء كتذكار ..

ومع قصر المدة التى قضتها (إدموندز) وراء خطوط الحلفاء - ثلاثة أيام - إلا أنها عادت بمعلومات عسكرية مهمة .

وخلال الأشهر التالية ، استطاعت بنجاح أن تنجز (١١) مهمة أخرى خلف خطوط الحلفاء دون أن يتم كشفها .

فى إحدى المرات ذهبت على أنها بائعة جائلة أيرلندية ، وفى مرات أخرى تنكرت فى شكل كاتب حسابات للبضائع المجففة ، أو تظاهرت أنها الصديق الحزين لجندى ميت .

ولم تفصح (إيما) أبدًا عن الوسائل التى تتبعها ، فى الخروج والدخول ، بكل هذه البساطة ، فى زمن الحرب ، حتى إن بعض

المؤرخين شكوا فى كونها جاسوسـة مزدوجة ، تعمل لحساب الجانبين ، فى وقت واحد !!

ولكن هذا الاعتقاد ينتفى تمامًا ، مع الوسيلة ، التى ماتت بها (إيما) ..

فطوال الوقت ، كان الكل يتوقع أن تلقى (إيما) مصرعها فى ساحة القتال ، أو أن يتم الإيقاع بها وإعدامها ، إلا أنها ـ حتى فى هذا ـ فاجأت الكل ..

فأثناء انتحالها شخصية الجندى ، وربما لتنقلاتها المتواصلة ، أصيبت (إيما) بحمى الملاريا ، التى اشتدت عليها ، بسبب رفضها العلاج ؛ خشية كشف حقيقة جنسها ، ثم لم تلبث أن قامت برحلتها الأخيرة بين الجانبين ، متحاملة على نفسها ، لتموت فى هدوء ، شاحبة نحيلة ، على فراش المرض ..

وطوال حياتها ، لم تعرف لـ (إيما) علاقة عاطفية واحدة ، ولم تمنحها حياتها غير المستقرة فرصة للزواج أبدًا ..

ولكنها كانت ومازالت ، تحمل صفة تضمن لها مكانة مهمة فى التاريخ الحديث باعتبارها أم الجاسوسية .. النسائية .

★ ★ ★

حرب المعرفة

(المعلومات)

٤ - خمسة أسباب للخيانة

٤ـ خمسة أسباب .. للخيانة ..

لو أنك سألت أى ضابط مخابرات ، فى أى مكان فى العالم ، عن أدق لحظة فى عمله ، وأكثرها حساسية ، لأخبرك أنها لحظة تجنيد عميل ما ، من مجتمع آخر ، للعمل لحساب جهاز مخابراته ..

فعملية تجنيد فرد ما ، ليصبح عميلاً ، فى قلب العدو ، عملية محفوفة بمخاطر شتى ، وصعوبات بالغة ؛ لأن فشلها قد يؤدى إلى انهيار شبكة جاسوسية كاملة ، أو يمنح الخصم فرصة القيام بهجمة مرتدة ، وتسديد هدف إلى مرمى جهاز المخابرات الآخر ، من خلال كشف العميل ، أو تطوّع هذا الأخير بإبلاغ المخابرات فى دولته ، عن محاولة تجنيده ، واستغلال هذا فى الإيقاع بمن حاول تجنيده ، أو بجهاز المخابرات الخصم ..

لذا ، فعملية تجنيد العميل تتم ببطء ، ووفقًا لخطوات دقيقة للغاية ، ومدروسة إلى أقصى حد ، وقواعد لا يمكن تجاوزها ، مهما كانت الأسباب ؛ حتى تنخفض احتمالات الخطأ والفشل فيها ، إلى أدنى حد ممكن ..

وأهم هذه القواعد هى أن تدرك جيدًا أنك تقوم بتجنيد شخص ، ينتمى فعليًا إلى معسكر الخصم ، ومن الضرورى أن تلتقط فيه طرف خيط ، يقنعك بأنه قابل للتجنيد ، أو يسمح لك بالسيطرة عليه ، وتوجيهه إلى حيث يخدم مصالحك ، إلى أقصى حد ..

وفى هذا المضمار ، تكون أول خطوة دائمًا ، هى أن تعرف طبيعة الشخص الذى تسعى لتجنيده ، وتحديد انتماءاته ، واستعداده للعمل لحساب جهاز مخابرات مضاد ، بغض النظر عن ردود أفعاله المباشرة ، أو عصبياته المتفجرة ، أو الآراء التى يعلنها طوال الوقت ضد النظام القائم فى دولته .

فقد تلتقى بشخص دائم الغضب والشكوى ، من أوجه قصور متعددة فى دولته ، ولكنه غير مستعد لخيانتها ، حتى لو كان المقابل هو نعيم الدنيا كله .. وعلى الصعيد الآخر ، قد تجد شخصًا صامتًا ، مستكينًا ، وربما يتحدث طوال الوقت عن الشرف والفضيلة ، ولكن لديه استعدادًا كبيرًا للخيانة ..

وفى كل الأحوال ، فإن الفاسدين ، والطماعين ، والشهوانيين ، والمقامرين ، هم خامة صالحة للتجنيد ، فى معظم الأحيان ، ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض الاستثناءات ، فى عالم

الجاسوسية ، وبخاصة بين شديدى الطموح ، الذين لاتحكمهم قواعد اجتماعية ، أو أخلاقية واضحة ، كما فى حالة (هبة سليم) ، خريجة السوربون ، والتى عرضت عمليتها فى فيلم (الصعود إلى الهاوية) ، تحت اسم (عبلة كامل) ..

ولأن عملية الاختيار صعبة ومعقدة وشديدة الحساسية والخطورة ، فالأمر يحتاج إلى خبير محنك .. أو إلى فراز (Spotter) ، ومهمته تشبه كثيرًا مهمة الشخص الذى ينتقى اللاعبين المناسبين للفرق الكبرى ؛ إذ إنه يتمتّع دومًا بشخصية لطيفة ، أنيقة ، وجذابة فى الوسط الذى يندمج فيه ، وعيناه تظلان مفتوحتين دومًا ، على المجتمع المحيط به ؛ لانتقاء العناصر الصالحة للتجنيد ، وعقد أواصر الصداقة معها ، والإبلاغ عنها ، مع جمع كافة المعلومات الخاصة بها ..

ومن النادر أن يقوم الفراز بمفاتحة الهدف ، أو مكاشفته ، وإنما ينقل ترشيحه ، وما حصل عليه من بيانات إلى المتخصصين فى جهازه ، والذين يقومون بتحليل الشخصية وفقًا لما تم جمعه من معلومات ، وتصنيف الهدف وتحديد الوسيلة المثلى للتعامل معه ..

والتصظنيف والتحديد هما أهم مرحلة ؛ إذ من الضرورى معرفة نوع الخيط الذى سيجذب الهدف إلى المصيدة ، فالشخص المتاح يمكن جذبه وتجنيده بوسائل مختلفة ، أشهرها خمسة :

المال : وهو أشهر الوسائل وأنجحها ، فى هذا المجال ؛ إذ إن الطمع والشراهة هما أكثر الصفات التى تدفع بعض الناس إلى التحالف مع الشيطان نفسه ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل الحصول على المزيد ، وفقًا للقاعدة التى تقول : اثنان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال .. وما دام التحالف مع الشيطان ممكنًا من أجل المال ، فملذا يضير التحالف مع العدو ؟!

من هذا المنطلق ، يمكن أن يقبل طالب المال فكرة التجنيد ، والعمل ضد دولته ، ولحساب عدوها ، من أجل مكافآت سخية ، وثراء يحلم به منذ زمن ، إلا أنه يظل دومًا تحت المنظار ، حيث إن انقلابه ممكن ، باعتبار أن ولاءه الوحيد للمال فقط ، ومن يمنح أكثر منه يمتلكه ، مهما كانت هويته ..

الجنس : ويعتبر وسيلة قوية لتجنيد أى شخص ، وبالذات أولئك الذين تنهار إرادتهم أمام امرأة جميلة ، أو جسد بض مثير ، وهؤلاء يكثرون فى الدول الفقيرة والمنغلقة ..

ولقد كانت المخابرات السوفيتية هى أول من انتبه إلى هذه الحقيقة ، فى فترة نشأتها الأولى ، مما دفعها إلى إنشاء جهاز خاص مهمته تدريب الفتيات ، منذ سن صغيرة جدًا ، على إشباع رغبات الرجال ، وفهم متطلباتهم ، واستيعاب طبيعتهم ، ونزواتهم الطبيعية ، وحتى الشاذة ، ومنحهم ما يرضيهم تمامًا ، وبأسلوب شديد البراعة والذكاء ، بحيث يرتبط الرجال بهن ارتباطًا وثيقًا ، يجعلهم مستعدين للقتل فى سبيل الاحتفاظ بهن ..

وما دامت الأمور قد بلغت حد القتل ، فما مشكلة التجسُّس ؟!

أو حتى الخيانة ؟!

المبدأ : وهو أخطر دافع لتجنيد المرء ضد مصلحة وطنه ؛ إذ إن الشخص يكون مستعدًا للتضحية بحياته نفسها ، من أجل الخصم الذى ينجح فى إقناعه بأنه إنما يفعل هذا فى سبيل مبدئه ، أو عقيدته ، وتتوقف درجة نجاح جهاز المخابرات ، فى تجنيد عميل ما - من هذا المنطلق - على براعته فى استغلال ارتباط ذلك العميل بمبدئه ، وقدرته على

إقناعه ، أو العقيدة نفسها ، أو دفعه إلى التطرُّف فى مبدئه ، إلى حد القتل من أجله ..

ومن أشهر حالات العمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، من أجل المبدأ عملية (كيم فيلبى) ، نائب رئيس جهاز المخابرات البريطانى السابق ، الذى اقتنع بالشيوعية ، واعتنقها ، فاستغل جهاز المخابرات السوفيتى هذا ، وجنده للعمل لحسابه ، طوال سنوات عديدة ، ثم نجح فى تهريبه إليه ، قبل أن ينكشف أمره ..

وفى حالات أخرى ، استغلت بعض أجهزة المخابرات العقائد لدفع البعض إلى القيام بعمليات تدمير وتخريب داخل مجتمعاتهم ، وإلى الحد الذى يضحون فيه بحياتهم نفسها ، من منظور يتصورون أنه عقائدى تمامًا ، فى حين أنهم ضحايا مخطط كبير لإضعاف الاقتصاد ، وإشاعة الفوضى ، والبلبلة ، بحجة حماية العقيدة ، وإقامة العدل الإلهى ..

الرفض : فى هذه الحالة بالتحديد ، يتم رصد الأشخاص ، الرافضين لنظم وعقائد وحكومات مجتمعاتهم ، والغاضبين مما يحيط بهم ، أو الناقمين على ما خسروه فى عهد ما ؛ وتجنيدهم ضد هذه النظم ، واستغلال غضبهم ونقمتهم ، كطاقة

سلبية مدمرة ، تدفعهم لبذل قصارى جهودهم من أجل تدمير مجتمعاتهم ، والانتقــام ممـا أصـابهم ، دون أن يدركـوا أن هذا يدمرهم شخصيًا ، مع مرور الوقت ..

الخطأ : إحدى الوسائل المضمونة ، لتجنيد الأفراد ، رغمًا عنهم ، للعمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، وذلك عن طريق رصد خطأ مـا للشخص ، أو دفعــه لارتكاب خطأ مـا ، أو حماقة ما ، أو التورُّط فى علاقة غير مشروعة ، وتسجيل هذا الأمر ، وتوثيقه ، ثم إطلاعه عليه ، وتبصيره بمـا يمكن أن يؤدى إليه كشفه ، من تدمير لمستقبله وحياته ، وطموحاته وآماله ، مع مزج جانب الترهيب بلمحات من الترغيب ، حول الفوائد التى سيجنيها ، ماليًا وعمليًا ، من العمـل لحساب جهاز المخابرات الخصم .. وهكذا ..

ومن أهم الأسباب ، التى تدفع إلى هذا الأسلوب ، وجود الهدف فى موقع مهم ، وفشل الوسائل الأخرى فى الإيقاع به ..

ومـن الضرورى جدًا تحديد الوسيلة المناسبة ، لتجنيـد شخص ما ؛ إذ إن استخدام وسيلة غير مناسبة يؤدى إلى خسارة العميل ، وفشل العملية كلها ، وكشف اللعبة من أساسها ، وربما يدفع الهدف إلى رد فعل عكسى ، فيبلغ أجهزة الأمـن فى دولته ..

ومهمة جهاز المخابرات ، هى تحديد الشخص المطلوب ، والاقتراب منه ، ومعرفته عن قرب ، ورصد نقاط ضعفـه ، واتجاهاته ، وشغفه بالمال ، أو النساء ، أو رفضه لمجتمعـه ، أو انتمائه العقائدى ، وتحديد الوسيلة المناسبة للتعامل معه ..

وإذا ما ثبت أنه شخص قابل للتجنيد ، يتم إرسال محترف للقائه ، ومقابلته وجهًا لوجه ، بوسيلة يرتبها الفراز ، والذى يضمن حدوث اللقاء ..

وأثناء اللقاء ، يقوم المحترف بإعادة تقييـم الهدف ، فـى ضوء كل ما أتيح له من معلومات ، وتقارير نفسية ومخابراتية ، فإذا ما تيقن من صلاحيته ، عن طريق المواجهة المباشرة ، فإنه يبدأ فى طرح الأمر عليه تدريجيًا ، وهذا هو الأسلوب المعتاد .. أو مباشرة ، وهو ما حدث فى حالات نادرة جدًا .. وفقًا لما يتراءى له ، معتمدًا على أسس مدروسـة ، بالإضافة إلى خبرتـه ، فى فهم وتحليل الشخصيات ..

ويعتبر الأسلوب التدريجى هو الشائع والأكثر أمانًا ، فـى معظم حالات التجنيد ؛ إذ إنه يعتمد فى البداية على جذب الهدف إلى منطقة وسـط آمنـة ، كـأن يطلب منـه جمـع المعلومـات لصحيفة ما ، أو لمنظمة محـايدة تدعو للسلام ، وبعدهـا يطـالب

بجمع معلومات عن جهة ثالثة ، مثل الروس فى أوربا ، أو الأمريكيين فى مصر ، بحيث يعتاد جمع المعلومات وإبلاغها ، دون شعور بالقلق أو الذنب ..

وبعدها ، تأتى مرحلة المصارحة ، وكشف الأوراق ، وهى مرحلة قد لاتأتى أبدًا ، لو أن العميل يؤدى كل المطلوب منه ، دون طرح أسئلة ، وقد تحتم الظروف بلوغها بقفزة مفاجئة ، إذا ما طرأ أمر يستدعى هذا ، ولكن فى كل الأحوال ، لابد من التوغل فى عملية المصارحة برفق ، وبعد أن يقرر الخبراء أنها ممكنة ، ولن تؤدى إلى رد فعل عنيف ، أو أن العميل قد تورط بالفعل ، ولم يعد باستطاعته التراجع ..

وفى كل الأحوال ، وأيًا كانت وسيلة التجنيد ، فلابد وأن يوضع فى الاعتبار أن ذلك العميل يعمل لحساب دولة خصم لدولة مسقط رأسه ، التى ينتمى إليها ، ويحمل جنسيتها فعليًا ..

لذا كان من الضرورى إيجاد وسيلة ، لضمان السيطرة الدائمة عليه ..

ووسيلة السيطرة النمطية ، والأكثر انتشارًا فى الوقت ذاته ، هى دفع العميل إلى التوقيع على إيصالات ، بكل المبالغ التى يحصل عليها ، على نحو يوضح تورطه فى الخيانة ، والعمل

على أن يدرك هذا فيما بعد ، بحيث تصبح تلك الإيصالات سيفًا مسلطًا على عنقه طوال الوقت ، ودافعًا لتوغله أكثر وأكثر ، باعتبار أن التراجع لم يعد ممكنًا ..

ولكن الواقع أن التراجع يظل دومًا ممكنًا ، مهما بلغت مرحلة التورط فى الخيانة ؛ إذ إن معظم أجهزة المخابرات العالمية تفضل أن يأتيها العميل ليعترف بخيانته ، وأن تمنحه فى هذه الحالة عفوًا وحصانة ، على أن يظل شوكة فى ظهرها ، إن لم تكشف أمره ..

وفى مصر هناك قانون يمنح الجاسوس عفوًا لو أنه أدلى باعترافه أمام الجهات المسئولة ، قبل كشف أمره والإيقاع به ..

وذهاب العميل من تلقاء نفسه للاعتراف بمحاولة تجنيده ، أو حتى بتورطه فى الخيانة ، يمنح جهاز المخابرات فرصة نادرة لإعادة تجنيد ذلك العميل ضد جهاز المخابرات الخصم ، فيما يعرف بأسلوب الجاسوس المزدوج ..

وما من مصطلح أسىء فهمه ، من بين كافة مصطلحات المخابرات ، مثل الجاسوس المزدوج ؛ إذ يتصور البعض أنه شخص حقير يلعب على الحبلين ، أو أنه الانتماء ، على

أفضل التصورات ، ولكن الواقع أن هذه التصورات خاطئة تمامًا ، وتسىء إلى أجهزة المخابرات فى مجملها ؛ فمن المستحيل أن ينجح فرد واحد ، مهما بلغت عبقريته ، فى أن يخدع جهازى مخابرات ، بكل أقسامهما ، وخبرائهما ، وخبراتهما ..

ومن غير المنطقى ـ أيضًا ـ أن يكون هناك شخص طبيعى ، ينتمى إلى جهتين متضادتين !!

الجاسوس المزدوج إذن هو شخص يعمل لحساب جهتين ، تتصورّ كل منهما ، وتوقن من أنه يعمل لحسابها ، وينتمى إليها ، فى حين أنه ينتمى فعليًا لجهة واحدة منهما ، تعاونه بكل براعتها ، وخبرتها ، وخبرائها ؛ لخداع الجهة الأخرى ..

والتعامل مع الجاسوس أو العميل المزدوج أمر دقيق للغاية ؛ فالطرف الآخر يعلم أيضًا أنه جاسوس ، ويتعامل معه من منطلق حذر ؛ لذا فاللعبة فى هذه الحالة بالتحديد تبدو أشبه بلعبة الشطرنج ، حيث تكون القطع مكشوفة ، والمواجهة حامية ، والبراعة فى أقصاها ..

ثم ، وكما يحدث فى معظم مباريات الشطرنج منذ الأزل ، يكون هناك غالب ومغلوب فى النهاية ..

وفى بعض الأحيان ، قد يتورط شخص ما فى مستنقع الخيانة ، وبدلاً من أن يعترف بهذا مباشرة ، فإن الطمع يدفعه إلى الحصول على كل ما يمكنه من العدو أولاً ، ثم يأتى بعدها ليبلغ عن محاولة تجنيده ، كوسيلة لتنظيف ملفه ، والفوز بالغنيمتين فى آن واحد ..

مقابل الخيانة ، والعفو ..

ولكن ما من جهاز مخابرات يمكن أن ينخدع بهذه السهولة ؛ إذ إن الجاسوس ينسى ، والحال هكذا ، أنه يتعامل مع خبراء ، وأنه مهما حاول إخفاء الأمر ، أو تصور أنه داهية ماكر ، ستفلت منه كلمة ، أو حتى معلومة صغيرة ، وهم سيكشفونه ، ويواجهونه ، ويوقعون به حتمًا فى النهاية .. وهذا ما حدث بالفعل ، فى الآونة الأخيرة ، وما أدى إلى أن يفقد أولئك المتحايلون فرصة العفو المتاح ، والإفلات من السقوط أيضًا ..

فالخيانة عار ، مابعده عار ، مهما بلغ حدها ، أو تعددت أسبابها ..

والمهام التى توكل إلى الجاسوس بعد تجنيده تختلف وتتباين إلى حد كبير ، وترتبط بموقعه ، ودوافعه ، وزمنه ، وطبيعة العلاقة بين دولته والدولة التى جندته ، فقد يطلب منه عمل استطلاع لرأى رجل الشارع ، أو إطلاق شائعة ما ، أو نقل معلومات اقتصادية ، أو علمية ، أو حتى عسكرية ،

أو الحصول على وثائق سرية ، أو تصويرها ، أو نسخها ، وربما يطلب منه القيام بعمليات تخريب واسعة أو محدودة أو حتى البقاء فى حالة خمول ، حتى تحدث أحداثًا بعينها ، أو يصل هو إلى موقع خاص ، دون أن يقوم خلال هذا . بأى تصرف مثير للشبهات ، من شأنه إعاقة تقدمه ..

وفى بعض الأحيان يكون الجاسوس من دولة أخرى لا تتصل على نحو مباشر بالدولة التى يعمل لحسابها ، كتجنيد ألمانى مثلاً للتجسس لحساب إسرائيل ، أو فرنسى فى قلب كوريا الشمالية ، أو يابانى لحساب مصر .. وهكذا . وهذا يساعد على إبعاد الشبهات عنه ، إلى حد كبير ، وبخاصة إذا ما كان ينتمى إلى دولة ذات عداء تاريخى واضح مع دولة العدو ، كما حدث فى قضية مدرب الخيول الألمانى (لوتز) ، الذى ألقى القبض عليه فى مصر فى الستينيات ، بتهمة التجسس لحساب إسرائيل ..

ولقد كان (لوتز) هذا جاسوسًا مقيمًا ، أى الجاسوس المستقر ، الذى يتابع وينظم شبكة الجاسوسية كلها ؛ لذا فقد كان سقوطه مدويًا ..

وإسقاط الجواسيس هذا أمر حرفى للغاية ، و ....

وله حديث آخر .

* * *

أشهر الجواسيس

رودلف إيفانوفيتش أبل

(١٩٠٣م-١٩٧١م)

أشهر الجواسيس ..

روداف إيفانوفيتش أبل

(١٩٠٣م - ١٩٧١م)

جاسوس سوفيتى مهم ، كان يعمل فى الولايات المتحدة فى الخمسينيات ، وتم استبداله بـ (فرانسيس جارى باورز) قائد طائرة التجسس (يو - ٢) ، بعد خمس سنوات من القبض عليه .

ويقال إن اسمه الحقيقى (الكسندر إيفانوفيتش بلوف) ، المولود فى مدينة على نهر الفولجا ، وكان والده صانع أدوات معدنية ، ينتمى لجماعات تحررية ، وإنه ساعد والده فى توزيع الأدب البولشيفى .

ولقد درس (أبل) الهندسة ، وكانت له معرفة بالكيمياء والفيزياء النووية ، وانضم للحزب الشيوعى الصغير (كوموسومول) فى ١٩٢٢م ، وإن أصرت المصادر البريطانية على أنه قد ولد فى بريطانيا باسم (ويليام فيشر) ..

كان يتقن الإنجليزية والألمانية والبولندية واليديشية إتقانًا تامًّا كلغته الروسية ، وخدم فى وحدة اتصالات الجيش الأحمر ، وعمل بعدها كمدرس للغة الروسية حتى عام ١٩٢٧م ، عندما التحق بالـ (او. جى. بى. يو) ، ولكنه استدعى ثانية إلى الجيش الأحمر كمتخصص راديو ..

خدم على الجبهة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية كضابط مخابرات ، وسجل أنه اخترق (ابوير) كسائق ، تحت اسم (يوهان فايس) ، وقد استخدم أيضًا فى هذه الفترة اسم (مارتن كولينز) .

وبعد اجتياح الألمان للاتحاد السوفيتى بقليل ، تمت ترقية (أبل) ، وأصبح وكيلاً عريفًا فى بحرية الجيش الألمانى ، كما تم تقليده وسامًا .

ومع نهاية الحرب ، حمل (أبل) رتبة الميجور فى الـ (ان . كيه . فى . دى) ، ثم دخل كندا بطرق غير شرعية عن طريق فرنسا عام ١٩٤٧م مستخدمًا اسم (اندرو كابوتيس) ، ثم عبر الحدود إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٨م .

وبحلول عام ١٩٥٤ كان يحمل اسم (إميل ر. جولدفوس) ، كرسام فى مدينة (نيويورك) .. وخدم (أبل) كجاسوس مقيم للـ (كى . جى . بى) فى منطقة (نيويورك) ، حيث كان يتحكم فى شبكة التجسس السوفيتية المحلية ، والعمليات التى تتم فى شمال ووسط أمريكا ..

وعن طريق راديو لاقط ، كان يرسل المعلومات ويتلقى التوجيهات من موسكو ، على موجة قصيرة ، إلا أن ذلك ـ بالطبع ـ لم يمنع (أبل) من زيارة موسكو فى بعض الأحيان ، ما بين ١٩٥٤م ، ١٩٥٥م ؛ للتناقش مع كبار الضباط فى الـ KGB ، وفى الولايات المتحدة ، ترقى (أبل) إلى رتبة الكولونيل ..

وفى ٢١ يونيو ١٩٥٧م ، ألقى مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) القبض عليه ، بعد إعطائه (جيمس ف . بوزارت) ، بائع الصحف نيكلاً مجوفًا ، يستخدم فى نقل الرسائل السرية ، وكان هذا هو دليل الإثبات ضده ..

أدين (أبل) وحكم عليه بالسجن لمدة ٣٠ عامًا ، مع غرامة قدرها ٣٠٠٠ دولار ، وظل بالسجن إلى أن تم استبداله فى ١٠ فبراير ١٩٦٢م بالطيار (باورز) ، على كوبرى (جلينيك) الممتد شرق وغرب برلين ..

بعد عودته إلى الاتحاد السوفيتى ، شارك (أبل) بفاعلية فى تدريب وإعداد كوادر جديدة بالمخابرات السوفيتية ، ذلك طبقًا لما يردده السوفيت أنفسهم ..

وتبعًا لمصدر سوفيتى ، كان (أبل) ـ كرجل صغير السن ـ يبدو خجولاً ، ولكن عينيه المفعمتين بالحياة والنشاط والدهاء ، وابتسامته الساخرة اللاذعة ، وإيماءته الواثقة الأنيقة ـ كانت تنم عن إرادة قوية ، وذكاء متوقد ، وتفان تام ..

وقد أشادت الحكومة السوفيتية علنًا بـ (أبل) كضابط مخابرات في ١٩٦٥م ، وكان واحدًا من خمسة ضباط في الـ KGB وضعت صورهم على طوابع بريدية ، أصدرها الاتحاد السوفيتي في ٢٠ نوفمبر ١٩٩٠م .

★ ★ ★

قصة العدد

العرّاف

١ـ المهاجر ..

فرحة جنونية اجتاحت (إسرائيل) ، من أقصاها إلى أقصاها ، عقب انتصارها الساحق فى حرب يونيو ١٩٦٧م ، بعد أن احتلت ، خلال أسبوع واحد ، من ثلاث دول عربية مجاورة ، ما يساوى تقريبًا ضعف مساحة دولتها دفعة واحدة ، وانتفخت أوداج جنرالات الجيش الإسرائيلى زهوًا وفخرًا ، وهم يملئون صدورهم بنياشين وأوسمة النصر ، ويملئون صفحات الصحف بأحاديث فخمة عن عظمة الجيش الإسرائيلى ، وقدراته الأسطورية ، التى جعلته منيعًا لا يُقهر ..

ولأن الحصيلة كانت تفوق أحلامهم نفسها ، غرق الإسرائيليون فى نشوة النصر حتى النخاع ، وتحولّ جنرالاتهم ، فى ضربة واحدة ، من قادة جيوش إلى نجوم لامعة فى المجتمع الإسرائيلى ، تملأ صورهم وتصريحاتهم الصحف والمجلات ، وتطلّ من شاشات التليفزيون فى (إسرائيل) والغرب كله ..

وفى غطرسة لا مثيل لها ، راحت وسائل الإعلام الإسرائيلية تصف تلك الحرب القصيرة بأنها معجزة جديدة ، من معجزات العصر الحديث ، تستحق أن تكتب فى التوراة ـ على حد قولهم ـ

واعتبرتها شهادة تقدير لجهاز المخابرات الإسرائيلى (الموساد) ، الذى أعلن أنه صاحب الفضل الأول فيما أسماه بالانتصار الساحق على الجيوش العربية مجتمعة ، بفضل خداعه لهم ، وحصوله على كل المعلومات الممكنة منهم ، وخرج (موشى ديان) ، وزير الدفاع الإسرائيلى آنذاك ، ليُعلن فى مؤتمر صحفى أن الانتصار على العرب لم يكن عسيرًا ؛ لأنهم لا يقرءون ، ولا يتعلمون من تاريخهم وماضيهم ..

أما جنرالات (إسرائيل) ، فقد حولّهم كل هذا إلى ذكور طواويس ، من فرط الزهو والغرور ، حتى لقد نسوا أو تناسوا حقيقة تلك الحرب الخاطفة ، واعتبروها بالفعل أعظم انتصارات التاريخ ..

ولأن للشهرة والأضواء بريقًا ، يخبو إلى جواره كل بريق ، ذاب جنرالات الجيش الإسرائيلى وسط الهتاف ، والتصفيق ، والتكريم ، والاحتفالات ، وأصابهم ما يُطلق عليه علماء النفس (استرخاء ما بعد النصر) ..

وطوال الوقت ، وفى كل أحاديثهم ولقاءاتهم الشخصية ، كان جنرالات إسرائيل يسترجعون ما حدث ، ويؤكدون أنه ليس

انتصارًا على الجيوش العربية فحسب ، وإنما على الإرادة العربية أيضًا ، وأنه مهما طال الزمن ، لا يمكن أن تأتى العرب صحـوة جديدة ، ينهضون فيها من هزيمتهم هذه ..

ومن وجهة نظرهم ، كان انتصارهم أبديًّا ..

ودون أدنى شك ..

وفى نفس الوقت ، الذى غـرق فيـه الجنرالات فى نشـوة النصر ، وما أعقبه من انبهار إعلامى عالمى ، كـان عشرات المهاجرين يتوافدون علـى (إسرائيل) ، ويتهـافتون علـى القدوم إليها ، من كل بقاع الأرض ، متصورين أن حرب يونيو ١٩٦٧م ، ستحولّها إلى جنـة الله فى الأرض ، وستضع فيها عشرات الفرص لكل حالم ..

وبمنتهى العنايـة والدقـة ، راح الإسرائيليون يفحصـون ويدرسون أوراق كل مهاجر جديد ، من المئات الذين يفدون يوميًا ، للتيقُّن من هويتهم ، وجنسيتهم ، وديانتهم ، ومراجعة كل نقطة يمكن أن يتبادر إليها الشك فى تاريخهم كله ..

ومن بين هؤلاء المهاجرين ، كان (دافى كرينهال) ..

شاب ضئيل ، نحيل ، شاحب الوجه ، قصير الشعر ، من أصل سوفيتى ، يوحى كل شىء فيه بالفقر ورقـة الحال ، وإن بـدت فى عينيه التماعة عجيبة ، توحى بأنه يتمتع بذكاء خـاص ، ونقاء فطرى مدهش ..

وعلى عكس باقى الوافدين ، جلس (دافى) صامتًا مستكينًا ، ينتظر دوره فى صبر ، وهو يحمـل حقيبتـه الوحيدة الصغيرة ، والتى تآكلت أطرافها ، وانهار أحد قفليها ، وبدت فى حالة أكثر مدعاة للشفقة منه ..

وعندما حان دوره ، وقف أمام ضابط الهجرة الإسـرائيلى صامتًا مستكينًا ، تتطلّع عينـاه إلى قدميـه وحذائه الرث فـى ارتباك ، والضابط يراجع أوراقه ، ومستنداته ، قبل أن يسـأله ، فى شىء من الصرامة :

ـ لماذا أتيت إلى (إسرائيل) ؟!

بدت الحيرة على وجـه (دافى) ، وتحاشى النظر فى عينى الضابط ، شأن أى شخص اعتاد الخضوع للسلطة ، وهو يُجيب بصوت تسمعه بالكاد :

ـ إنها أرض الميعاد .. أليس كذلك ؟!

كان الضابط الإسرائيلى يتوقَّع ردًا أكثر تحديدًا ، إلا أن الوسيلة التى نطق بها (دافى) عبارته ، والاستكانة التى أوحى بها مظهره ، جعلتنا الضابط يعيد إليه أوراقه ، قائلاً فى شىء من الضجر :

ـ انتظر فى ذلك الصف هناك .

حمل (دافى) حقيبته الصغيرة المتهالكة ، فى استكانة عجيبة ، وأطاع أمر الضابط ، ليقف فى الطابور الطويل لساعة أخرى ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وفى مساء ذلك اليوم ، حصل (دافى كرينهال) على تصريح الإقامة فى (إسرائيل) ، وتم نقله ، مع عدد كبير من المهاجرين الجدد إلى أقرب مزرعة أو (كيوبتز) ، ليعمل بالزراعة ، والأعمال الوضيعة الشاقة ، حتى يتم العثور على عمل مناسب له ..

هذا ما يقولونه للجميع ، ولكن الواقع أنه ما لم يكن لدى المهاجرين خبرة كبيرة ، فى مجال مهم وحساس ، فإنهم ينسون أمره تمامًا ، فور إرساله إلى (الكيوبتز) ..

وهذا ما حدث مع (دافى كرينهال) ..

ولكن الشاب لم يعترض ، ولم يرسل شكوى واحدة ، وإنما عاش حياته فى تلك المزرعة ، كما لو أنه يقوم بالعمل ذاته طيلة عمره ، فراح يعمل طوال الوقت ، ويوزع ابتسامته الشاحبة المرهقة على الجميع ، على الرغم من كل ما يبذله من جهد ، ثم يجد فى آخر النهار الوقت الكافى ليعاون عجوزًا على حمل الماء ، أو الاستماع إلى شيخ يندب حظه العاثر ، الذى جعله يُصدق الدعاية الإسرائيلية ، ويترك وطنه فى (بولندا) ، ليلقى نفسه وسط هذا العذاب الشاق ، أو مواساة امرأة فقدت ابنها فى حرب سابقة ..

ودون كلل أو ملل ، وطوال ثلاثة أشهر كاملة ، قصّ (دافى) قصته أكثر من ألف مرة ، على الرغم من بساطتها ..

فهو مجرد يهودى سوفيتى ، اعتقل الحزب الشيوعى والده ، بسبب خلاف فى الرأى ، وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره ، وقضت أمه عمرها كله لتربيته وتنشئته ، وهى تروى له عن والده ، وتحلم معه بعودته ، دون أن يراه أحدهما قط ، طوال السنوات التالية ..

ثم التقى برجل يوغسلافى ، ساعده على عبور الحدود ، ورافقه إلى (تركيا) ، ثم بقى هناك ، بعد أن أوصى قبطان سفينة شحن صغيرة بإنزاله فى (تل أبيب) ..

وكان الكل يستمعون إلى (دافى) فى تعاطف مشفق ، بسبب ضعفه الواضح ، وطيبته وتهذيبه ، وجسده الضئيل النحيل ، ولكن هذا لم يُغير شيئًا من طبيعة حياته الرتيبة الشاقة ، أو يسمح لهم بتذكره عندما يطلع النهار ، وتبدأ رحلة العذاب اليومية ..

حتى كانت تلك الليلة ..

ليلة صافية ، امتلأت فيها السماء بالنجوم ، وتألق وسطها القمر ، الذى يغمر المنطقة كلها بضوئه الفضى الحالم ، وينعكس على أعواد القمح فتبدو أشبه بنهر من الزنبق ، يتمايل بنعومة لا مثيل لها ..

فى تلك الليلة ، كان (دافى) يجلس مع مجموعة من رفاقه ، ويتحدث مع جارته الفاتنة (راشيل) ، وأمها العجوز (استير) ، و ....

وفجأة توقَّف (دافى) عن الحديث ، وشرد بصره بضع لحظات ، وزاغت عيناه على نحو أقلق (راشيل) ، فهزته فى رفق ، قائلة :

- (دافى) .. أين ذهبت ؟!

لثوان ، لم يبد عليه حتى أنه قد سمعها ، فعادت تهزّه بشىء من التوتر ، قائلة فى عصبية :

- (دافى) .. ماذا أصابك ؟!

وهنا ، استدار إليها الشاب فى بطء عجيب ، وتطلّع إلى عينيها مباشرة ، إلا أن نظراته ظلت شاردة ، وكأنما يسبح فى عالم آخر ، قبل أن يقول بغتة - وكأنه يحدث نفسه ، أو يتحدَّث مع شبح خفى :

- لقد أخطأ (بارون بلونسكى) كثيرًا ، عندما رفض الاعتراف بما فعل .

لم يكد ينطق العبارة ، حتى انتفض جسدا (راشيل) وأمها بمنتهى العنف ، وحدقتا فيه بذهول تام ، وهتفت الأولى بصوت بدا أشبه بالرعب :

- لماذا تقول هذا ؟! لماذا ؟!

هذا لأن ما ذكره (دافى كرينهال) ، كان بالنسبة للأم وابنتها مذهلاً ..

وبكل المقاييس ..

* * *

٢ ـ قـارئ الغيـب ..

امتقع وجه اليهودية (راشيل)، وشحب حتى كاد يحـاكى وجوه الموتى، وتبادلت نظرة هلع مذعورة مع أمهـا، قبـل أن تُحدق كلتاهما فى وجه (دافى) الشاحب الباهت، بكل ذهول وتوتر الدنيا ..

فما نطقه منذ لحظات كان مذهلاً للمرأتين ..

وإلى أقصى حد ..

إن (يارون بلونسكى) هذا، الذى تحدَّث عنه (دافى)، كان صديقًا قديمًا للفاتنـة (راشيل) فى (بغداد)، ولقد ربطت بينهما قصة حب طويلة، تحولت فى سرعة إلى علاقة غير شرعية، أسفرت عن حمل سفاح، لم يكد (يارون) يعلم بـأمره، حتى استنكره تمامًا، ورفض الاعتراف به، بل وابتعد عن (راشيل)، وتهرَّب منهـا لأسبوع أو يزيد، ثم لم يلبث أن فرّ من (بغداد)، ومن (العراق) كلها، إلى جهة مجهولة، وانقطعت أخباره عن (راشيل) وعائلتها تمامًا ..

ولم يكن من الممكن .. بل كـان المستحيل أن يعرف (دافى) حرفـا واحدًا عن هذه القصة، التى بذلت أسرة

(راشيل) قصارى جهدها لإخفائهـا، ولم تتحدَّث عنها أو بشأنها مع أى كائن كان، فى محاولة لنسيانها، ونسيان ما بذلته من جهد ومال؛ لإجهاض (راشيل)، وإنقاذها من الفضيحة والعار ..

بل، وربما كان هذا هو الدافع الرئيسى، لهجرة أسرة (راشيل) من (العراق) إلى (إسرائيل)، فى سرية تامة ..

فكيف علم (دافى) بالأمر، وتحدَّث عنه بهذه البساطة والمباشرة ..

وبشفتين مرتجفتين وصوت أشبه بالاحتضار عادت (راشيل) تغمغم:

ـ ماذا قلت يا (دافى) ؟! ماذا قلت ؟!

لم يبد حتى أن الشاب قد سمعها، وهو يُردِّد بنفس الشرود العجيب:

ـ لقد شعر بالندم والخزى، وقرَّر أن يدفع الثمن .. سيدفع قريبًا.

راح يكرِّر العبارة الأخيرة، وقد شملته رعدة غريبة، سرعان ما تحولت إلى ارتجافة قوية، اهتزَّ معها جسده الضئيل كله، مع عرق غزير، أغرق وجهه الشاحب النحيل، قبل أن يهوى بغتة فيما يشبه الغيبوبة ..

وفى جزع حقيقى ، التفّ الكل حول (دافى) ، يحاولون إسعافه وإيقاظه ، فيما عدا (راشيل) وأمها ، اللتين تشبثتا ببعضهما البعض ، وامتزجت ارتجافتهما ، وكل منهما تتساءل فى ذعر :

ـ كيف كشف (دافى) ما سعينا لإخفائه طويلاً ؟!

كيف ؟! كيف ؟!

وبعد دقائق خمس من غيبوبته ، استعاد (دافى) وعيه بغتة ، واعتدل جالسًا ، يتساءل فى حيرة عما حدث .

وعندما روى له بعضهم ما فعله ، بدت عليه الدهشة والحيرة ، وارتبك ، وحملت ملامحه ما يُشبه الذعر ، وهو يؤكّد أنه لا يذكر حرفًا واحدًا مما قالوه ، ولا يعرف حتى من هو (يارون بلونسكى) هذا ..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لولا ما حدث ، مع بداية الأسبوع التالى ..

ففجأة ، وبلا مقدمات ، تلقت (راشيل) رسالة من (أوربا) ، بداخلها شيك بمبلغ ضخم ، يمكن صرفه من أى بنك فى (إسرائيل) ، ويحمل توقيعًا كاد قلبها يتوقّف لرؤيته ، من فرط ذهولها ..

توقيع (يارون بلونسكى) ..

وعلى ظهر الشيك ، كانت هناك عبارة قصيرة ، بخط (يارون) نفسه ..

« تقبّلى اعتذارى » ..

وجنت الأسرة فرحًا بذلك المبلغ الضخم ، ومع فرحتها ، انتشرت القصة فى المزرعة كلها ، وراحت الأم ترويها لكل من تعرفه فى انبهار ، وتقصّ عليه نبوءة (دافى) ، دون أن تتطرّق إلى تفاصيل علاقة ابنتها بالمدعو (بلونسكى) ..

وانبهر الكل بالقصة ، وراحوا يتطلّعون إلى (دافى) بشغف حذر ، والشاب يستنكر تمامًا كل هذا ، ويؤكّد فى إصرار أنه لا يمتلك أية مواهب ، وأنه لا يذكر شيئًا عن الأمر كله ..

ففى حفل راقص ، فى نهاية الأسبوع ، وبينما الكل يلهون ويمرحون ، توقّف (دافى) فجأة ، وشرد ببصره على نفس النحو العجيب ، وبدا لحظة وكأنه يتطلّع عبر الجدار ، إلى هدف خفى ، وهو يقول :

ـ يا للخسارة ! لماذا ينكسر محراث جميل كهذا ؟! لماذا ؟!

وكم بدت عبارته غامضة عجيبة للكل ..

فالمحاريث الموجودة بالمزرعـة كلها جديدة ، أو تم تجديدها وإصلاحها ، من قبل الشركة المسئولة ، التى منحتهم ضمانًا لمدة عام كامل !!

كيف يمكن إذن أن ينكسر محراث منها ؟!

المهم أن (دافى) ظلّ على شروده هذا لبضع دقائق أخرى على الرغم من التفاف الكل حوله ، ومن عشرات الأسئلة التى يلقونها عليه ، حتى انتفض فجأة ، وتطلّع إليهم فى شىء من الذعر والذهول ، وهو يتساءل ، لماذا يحيطون به ، ويُحدقون فيه ، على هذا النحو العجيب ؟!

وكما حدث فى المرة السابقة ، أنكر (دافى) تمامًا ما حدث ، واستنكره ، وأكّد أنه لا يذكر حرفًا واحدًا منه ..

ولكنه لم يفقد الوعى هذه المرة ..

ولا للحظة واحدة ..

ولأن الأمر قد أثار الكل ، انبرى فريق من الشباب يفحص كل المحاريث الموجودة بالمزرعة ، طوال ثلاث ساعات كاملة ، قبل أن يُعلنوا أنها كلها سليمة تمامًا ..

وكان (دافى) أوّل من تنفس الصعداء ، وشكر الله على أن ما قاله لا أساس له من الصحة ..

ونام الكل وهم يشعرون بالارتياح والاطمئنان ، ويسخرون فى أعماقهم من (دافى) ، ومن نبوءاته العجيبة ..

ولكن ظهر اليوم التالى حمل لهم مفاجأة مدهشة ..

ففجأة ، وبينما يعمل فى كفاءة ، انكسر المحراث الرئيسى ، دون أى سبب منطقى لهذا ..

ومنذ تلك اللحظة ، تحول (دافى كرينهال) ، من عامل مزرعة بسيط إلى أسطورة ، يتحدّث عنها المهاجرون الجُدد ، ليس فى المزرعة فحسب ، ولكن فى المنطقة كلها .. ولم يمض أسبوع واحد ، حتى بدأت الناس تتوافد من المناطق المجاورة ؛ ليشاهدوا ذلك العرّاف المدهش ، ويسمعوا قصص تنبؤاته العجيبة ..

ولكن (دافى) ظلّ ينكر هذا ويستنكره ، ويتوارى عن القادمين فى خجل وخوف ، ويصر على أنه لا يدرى شيئًا عن تلك الموهبة المزعومة ، التى ينسبونها إليه ..

والعجيب أن إنكاره هذا لم يزد الناس سوى انبهار ولهفة وتهافت ، خاصة وأن تلك الحالة المدهشة قد انتابته مرتين أو ثلاث ، فى حضور العديد من القادمين ، وألقى خلالها نبوءة جديدة ، أو ذكر لأحد الحاضرين جزءًا من ماضيه ، الذى بذل جهدًا لإخفائه ، بحيث لم يعد يعلمه سواه ..

وكـان مـن الطبيعـى ، والحـال هكذا ، أن تتجـاوز شــهرة الشاب حدود معسكرات العمل البسيطة تلك ، وأن تقفـز إلـى أرض أكثر صلابة ..

وذات يوم ، ودون إعداد وإعلام مسبق ، فوجئ (دافى) بزائر من ذوى السترات الرسمية ، يصل إلى المزرعـة ، ويطلـب مقابلته شخصيًا ..

وفى انكمـاش وخـوف ، ذهـب (دافى) للقاء ذلك الزائـر الرسمى ، الذى تأمّله فى برود ، قبل أن يسأله :

ـ أأنت (دافى كرينهال) ؟!

أومأ الشاب النحيل الرث برأسه إيجابًا ، فمال الرجل نحوه ، وبدت نظراته صارمة حادة ، وهو يسأل :

ـ أصحيح ما يذكرونه عن موهبتك الفذة فى التنبؤ ؟!

استنكر (دافى) هذا فى شدة ، وراح يلوّح بكفيه فى توتـر ، وهو يؤكّد أن هذا مجرّد شائعات ، و .....

وبمنتهى الصرامة ، اعتدل صاحب السترة الرسمية ، قائلاً :

ـ استعد يا هذا ، فستأتى معى .

سأله الشاب بصوت مرتجف :

ـ إلى أين ؟!

شدّ الرجل قامته فى اعتداد ، مجيبًا فى صرامة :

ـ إلى (تل أبيب) .

وكانت مفاجأة .. مذهلة !

★ ★ ★

٣ـ ليلة الجنرالات ..

لم تكد أجهزة الاتصـال اللاسلكى ، فـى مبنـى المخابرات العامة المصرية ، تلتقط تلك الرسالة المشفرة ، التى وصلت فى منتصف النهار ، على غير المألوف ، حتـى تم تسليمها فورًا إلى قسم الشفرة ، الذى احتجزهـا سبع دقائق فحسب لترجمتها ، قبل أن يُرسلها فى مظروف مغلق مختوم إلى رجل المخابرات (أمجـد) ، الذى استقبلها فى اهتمام واضح ، وفضّ المظروف فى سرعة ، والتهـم كلماتها بعينيـه فى لحظـات ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

ـ خطوتنا الأولى نجحت يا سادة .

هبَّ زميله (سليمان) من مقعده فى لهفة ، يسأله :

ـ حقًّا ؟!

لوَّح (أمجد) بالرسالة ، هاتفًا فى ظفر :

ـ لقد استدعوه إلى (تل أبيب) .

تألّقت عينا زميلهما (ويليام) ، وهو يقول برصانته المعتادة :

ـ عظيم .

التقط (سليمان) الرسالة من يـد (أمجد) ، وراح يلتهم كلماتها القليلة بدوره ، فى حين هزّ (ويليام) رأسه ، قائلاً :

ـ كنت أخشى ألا يحدث هذا قط .

جلس (أمجد) فى هدوء ، على أقرب مقعد إليه ، وقال :

ـ كـل شىء محسـوب بمنتهى الدقـة يـا رجـل .. شبكة المعلومات ، التى أحطنا بها (أشـرف) ، وزمـلاءه فـى ذلك (الكيوبتز) ، جشمتنا جهدًا رهيبًا ، ولكـن مـن الطبيعى أن تؤتى ثمارها .

أعاد إليه (سليمـان) الرسالة ، وهو يقول فى حماس :

ـ الخطوة الأولى كانت عبقرية بحق .. أراهن أن (راشيل) وأمهـا ستتحولان إلـى أكبر أبـواق الدعايـة لرجلنـا ، بعدمـا بهرهما بقصة (يارون بلونسكى) المزعومة هذه .

لوَّح (أمجد) بسبَّابته فى الهواء ، قائلاً :

ـ رويدك يا صديقى .. قصة (يارون) ليست مزعومـة .. أنت تعلم كيف حصلنا عليها من (العراق) ، وكم بذلنا من جهـد ، حتى عثرنا على (يارون) فى (روما) ، وأقنعنـاه بأننـا أقارب (راشيل) ، ونسعى للقصاص منه .

هزَّ (سليمان) رأسه قائلاً :

ـ وكيف أنسى رعبه وذعره وانهياره ، وهو يوقّع الشيك ، ويكتب الاعتذار على ظهره ، ثم يُطلق ساقيه للرياح ، غير مُصدق أنه قد نجا منا .

وصمت لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه مرة ثانية ، مستطردًا :

ـ لست أظنه يجازف بالظهور مـرة أخرى ، بعد أن فقد كل هذا .

غمغم (أمجد) :

ـ بالتأكيد .

اعتدل (ولـيليام) فى مقعده ، قائلاً :

ـ ولكن فكرة زرع عميلين فى آن واحد ، كانت مبـادرة جريئة أكثر من اللازم يا (أمجد) .

هزَّ (أمجد) كتفيه ، قائلاً :

ـ من كان سيكسر المحراث فى قلب الليل ، ويبلغنا بتطـور الأمور فى وضح النهار إذن .

قالهـا ، والتقـط نفسًا عميقًا ، وحـاول أن يسـترخى فـى مقعده ، مضيفًا :

ـ المهم أن المرحلة الأولى من خطتنا قد نجحت ، و(أشرف) فى طريقه إلى (تل أبيب) الآن ، دون أيةَ حماية من جانبنا .

وصمت لحظة ، شرد خلالها بصره ، قبل أن يتابع فى توتر ، عجز عن إخفائه :

ـ لابد إذن أن يعتمد على نفسـه فحسب ، وعلى كل ما علمناه إياه ، ودربناه عليه ، و ....

قاطعه (سليمان) فى حزم :

ـ وعلى الله (العلى القدير) .

تنهَّد (أمجد) ، مغمغمًا :

ـ ونعم بالله .

ثم عاد بصره يشرد بعيدًا ..

وعميقًا ..

* * *

طوال الطريق ، من ذلك (الكيوبتز) ، وحتـى (تـل أبيب) ، انكمش (دافى) فى ذلك المقعد الوثير ، داخل السيارة السوداء

الفاخرة ، التى تنطلق على الطريق بسرعة مرتفعة نسبيًا ، يقودها شاب قوى ، مفتول العضلات ، يرتدى أيضًا زيًّا رسميًا ، ولكن برتبة تقل كثيرًا عن رتبة ذلك الرسمى ، الذى يجلس إلى جواره ، والذى لم ينبس بحرف واحد طوال الطريق ..

وأخيرًا وبعد ساعة أو يزيد ، توقّفت السيارة أمام مبنى كبير أنيق ، وقال له الرسمى ، فى شىء من الصرامة :

ـ انزل .

غادر السيارة فى استسلام ، يتناسب مع الضعف البادى على وجهه وجسده ، وتبع صاحب السترة الرسمية دون مناقشة ، إلى صالة الانتظار الفاخرة الأنيقة ، فى المبنى الكبير ، وجلس على الكرسى الذى أشار إليه به ، فى صمت مستكين ، حتى فوجئ بامرأة ممتلئة ، تتجه نحوه فى لهفة ، وتسأله فى شغف كبير :

ـ أأنت (كرينهال) ؟! (دافى كرينهال) ؟!

نهض فى سرعة ، وبدا مرتبكًا وهو يُجيبها فى احترام فائق :

ـ هو أنا يا سيِّدتى .

تأملته المرأة فى اهتمام كبير ، قبل أن ترتسم على شفتيها ابتسامة جذلة ، وهى تقول :

ـ تمامًا كما يصفونك .

ثم أشارت إلى صاحب السترة الرسمية ، قائلة بلهجة آمرة متغطرسة :

ـ أريده مناسبًا لحفل الليلة .

انحنى صاحب السترة الرسمية أمامها ، قائلاً فى احترام بالغ :

ـ بالتأكيد يا سيِّدتى .

وخلال الساعات التالية ، استوعب الشاب الأمر برمته ، وشعر بانبهار ما بعده انبهار ؛ لأن ما يحدث الآن ، هو نفس ما توقعوه فى المخابرات العامة المصرية ، قبل أن يرسلوه إلى (إسرائيل) ، ليلعبَ هذا الدور المعقَّد ..

فمع زهو النصر وأكاليل الغار ، التى ملأت رءوس ونفوس جنرالات (إسرائيل) ، ومع ما ثملوا به من خمر التألُّق الإعلامى ، كان من الطبيعى أن تصاب أعماقهم بالترهل ، وأن ينعكس تألُّقهم على زوجاتهم ..

فالنساء أكثر تأثُّرًا من الرجال بالإعلام والشهرة والأضواء ، وهن على استعداد للقيام بأى شىء فى الوجود ، لإثبات تفوقهن ، والبقاء على القمة طوال الوقت ..

ومع شهرة (دافى) وذيوع قدراته المدهشة علـى التنبؤ ، كان من الطبيعى أن تسعى زوجات المشاهير للاتصال بـه ، خاصة وأن السمة الأخرى للنسـاء ، هى اهتمـامهن الزائد بالغيب والطالع ، ولهفتهن غير المنطقية لمعرفـة ما سيأتى بـه المستقبل ..

ولقد توقَّع رجل المخابرات المصرى (أمجد) هذا ، كما لو كان يقرؤه من كتاب واضح مفتوح ..

كل هذا بعث فى أعماق الشاب مزيدًا من الثقة والاسترخاء ، وجعله أكثر هدوءًا ، وهم يعدّونه لذلك الحفل ، الذى أشـارت إليه زوجة ذلك الجنرال الإسرائيلى الكبير ، الذى تزين صورته صالـة منزله الفاخر الكبير ..

وعندما دقت الساعة تمام التاسـعة ، كـاد الشـاب يستنكر تلك الصورة ، التى تطلّ عليه من المرآة الكبيرة ، فـى الحجرة التى وضعوه فيها ، وهو يرتدى حلة سوداء أنيقـة ، نجحت إلى حد ما فى إخفـاء نحوله وضعفه ، وإن ضـاعفت

من شحوب وجهه ، ومن اتساع عينيه ، حتى بدا أقرب إلـى السقاة ، منه إلى أحد ضيوف الحفل ..

وفى التاسعة وخمس دقائق ، أتى صاحب السترة الرسمية ، يدعوه لحضور الحفل ، المقام فى بهو المنزل الكبير ..

وبنفس الصمت المستسلم تتبعه الشاب إلى الطابق السفلى ، وهو يتوقع رؤية حشد من السيدات و ....

وفجأة ، تسمَّرت قدماه ، وخفق قلبه فى عنف ..

فالبهو لم يكن يكتظ بزوجـات الجنرالات فحسب ، وإنمـا بالجنرالات أنفسهم ..

جنرالات الجيش الإسرائيلى .

* * *

٤ـ الكبار فقط ..

(أشرف فؤاد الطحـان) ، شـاب بسـيط ، مـن مواليـد (الإسكندرية) ، عام ١٩٤٣م ، والده مهندس مصرى ، من أسرة متواضعة ، اشتهرت بالعمل فى الموانى ، منذ أيام الخديو (إسماعيل) ، حصل بالكاد على بكالوريوس الهندسـة ، من جامعة (فؤاد الأول) القاهرة حاليًا ، بعد أن اقتطعت أسرته من قوتها ونفقاتها ، لتمنح أحد أبنائها شهادة عاليـة ، ربمـا تكون السبيل إلى تغيير مسار الأسرة ، وتصنيفها الاجتماعى ..

ولقد بذل (فؤاد الطحان) جهدًا خرافيًـا ، ليحقّق لأسرته ما حلمت به وتمنته ، ثم لم يلبث أن التقى بالأوكرانية (هليجا بتروفا) ، ذات الشعر الذهبى ، والعينين الساحرتين ، والتى يعمل والدها فى ديوان الحكومة فى (القـاهرة) ، فوقع فى هواهـا منذ النظرة الأولى ، وربطت بينهما قصة حب قوية ، سـرعان ما توجاها بالزواج ، علـى الرغم من اعتراض والد (هيلجـا) ، وكان (أشرف) هو ثمرة ذلك الحب القوى العميق ..

ولكن (فؤاد) لم يكتب له رؤية ابنه قط ، فقد قضى عليه حادث أليم ، قبل مولد ابنه بيوم واحد ، ليخرج الصغير إلـى

الحياة يتيمًا ، بائسًا ، لا يعرف عن والده أكثر من تلك الصورة ، التى تزين جدار منزله ، والتى اعتاد رؤية أمه تبكى أمامهـا ، كل حين وآخر ..

وحتى بلغ العاشرة من عمره ، كان (أشرف) يقضـى الشتاء كله فى كنف أمه وجده السوفيتى ، فى حين يمضى صيفه كله فى رعاية أسرة والده ، التـى اشتمت فيه رائحـة ابنها الراحل ، فشملته بكل الحب والرعاية والحنـان ، وغمرتـه بعطف وعناية الدنيا كلها ، على نحو لم يعهده ولا يعهده قط ، فى بيت أمه ..

وكنتيجة حتمية لازدواج المعيشة هذا ، نشأ الصبى وهو يُجيد التعايش مع الثقافة والعادات الروسية ، ويتحدثها بلهجة أبنـاء (أوكرانيا) بطلاقة ، فى نفس الوقت الذى يعشق فيه العادات المصرية البسيطة ، والعامية المصرية الطلقة ..

وفى منتصف طريقه إلى الحادية عشرة ، توفيت أمه فجأة ..

وبإصرار وعناد ليس لهما مثيل ، قرر جده أن يصطحبه معه إلـى (أوكرانيا) ، التى قررَّ العودة إليها نهائيًا ، وبعد أن تغير المجتمع ، وبدأ رجال الثـورة يبرزون نزعاتهم إلـى النظام الاشتراكى ، وتحبيذ مبدأ القطـاع العـام ، وتحـالف قـوى الشعب العاملة .

ولكن أسرة (فؤاد) وقفت كلها كجدار من الصلب ، أمام قرار الجد ، وقاتلت بكل طاقتها ، لمنع سفر (أشرف) إلى الاتحاد السوفيتى ، فتظاهر الجد بالرضوخ والخضوع ، ثم غافل الكل ، وحمل حفيده إلى الباخرة ، فجر اليوم التالى ، وأقلع به إلــى (أوكرانيا) ..

وكانت صدمة عنيفة لأسرة الراحل (فؤاد الطحان) ، ومرارة لم تفارق نفوسهم قط ، لسنوات وسنوات ..

المرارة نفسها حفرت خطوطها العميقة فى نفس (أشرف) الصغير وملامحه ، وهو يحيا فى (أوكرانيا) مرغمًا ، مقهورًا ، حالمًا بالعودة إلى (مصر) ، وإلى بساطتها ، وتلقائيتها ، ولغتها الجميلة ، التى كثيرًا ما يتحدَّث مع نفسه بهـا ، وهـو يجلس منفردًا ، فى ليالى (أوكرانيا) الباردة ..

وعلى الرغم من اقترابه من العشرينيات ، واختراقه مرحلـة المراهقة بأكملها ، لم ينجح الشاب فى عقد أية صداقات مـع أقرانه السوفيت ، بل ولم ينجح أبدًا فـى أن يربط قلبـه بأوكرانيـة حسناء ، وإنما آثر الانعزال والفردية ، وراح جسـده يزداد ضعفًا ونحولاً ، على نحو أزعج جده وأرقه ودفعه إلـى عرضـه علـى عدد من أطباء الحزب ، الذين أكدوا أنه لا يعانى أية أمراض عضوية ، وإنما كبتًا نفسيًا عميقًا ..

ثم فجأة ، وذات يوم ، استيقظ الجد ، ليجد أن حفيـده المصرى قد اختفى ، دون أن يترك خلفه أدنى أثـر ، ولا حتـى رسـالة توضيح أو اعتذار ..

وبعد ثلاثة أشهر ، ظهر (أشرف) فى الإسكندرية ..

لا أحد يدرى كيف نجح فى الخروج من الجدار الحديدى ، الذى أقامه الاتحاد السوفيتى حوله ، ولا كيف تسلَّل إلى تلـك الباخرة ، واختفى وسط بحارتها ..

ولكنه نجح فى العودة إلى مصر ..

عاد وكل ذرة فى كيانه تشعر باللهفة ، إلـى لقـاء أسرته الحقيقية ، وإلقاء نفسه وسط الدفء ، والحنان ، والحب ، و ....

ولكنه لم يكد يبلغ ذلك الحى الشعبى - حيث ترك أسرة والده آخر مرة - حتى كانت فى انتظاره مفاجأة ..

مفاجأة مؤلمة ..

« أأنت ذلك الشاب العرَّاف ؟! »

اخترق السؤال أذنيه ، لينتزعه من ذكرياته فى عنف ، فاعتدل (دافى) ، وتطلَّع إلى صاحبه لحظة ، بكل ما يحمله من رتب كبيرة ، ونظرة صارمة متشكِّكة ، وغمغم :

ـ اسمى (دافى كرينهال) يا سيدى الجنرال ، ولست أدرى شيئًا عن كل ما يصفوننى به ، فأنا ...

قاطعه الجنرال بإشارة ضجرة من يده ، قائلاً :

ـ لا باس .. لا بأس .. بالنسبة لى ، لست أصدق شيئًا مما يروونه عنك .

هتفت بـه زوجتـه ، تلك الممتلئـة المتأنقـة ، فى حماس كبير :

ـ انتظر ، وسترى .

مطَّ الجنرال شفتيه ، فى غطرسة مضجـرة ، وهو يُشيح وجهه ، قائلاً :

ـ نعم .. سنرى .

قالها ، وابتعد عـن (دافـى) فـى ازدراء واضـح ، فقـالت زوجته ، وهى تتأبط ذراع (دافى) ، وتقوده إلى قلب الحفل :

ـ دعك منه .. تعال .. الكل يرغب فى رؤيتك عن قُرب ..

ولم تمض دقائق ، بعد أن قدَّمته للكل ، حتى انقسم الحفل إلى فريقين .. فريق الجنرالات ، الذين تكونـت منهم دوائر للمحاورة

والمناقشة ، وفريق من زوجاتهم مع زوجات الضيوف ، واللاتى صنعن دائرة كبيرة ، حول (دافى) ، الذى بدا خجولاً ، مرتبكًا ، يؤكد فى إصرار أنه لا يدرى شيئًا عما يصفنه به ، وينسبنه إليه ..

وفى ذهنه ، كـان الشاب يسترجع عشرات المعلومات ، التـى حفظها عن ظهر قلب ، فى الآونة الأخيرة ، ويسترجع الصور والبيانات ، و .....

وفجأة تجمد جسده ، وشرد بصره ، على نحو توقَّفت معه كلماتهن ، وانحبست معه أنفاسهن ، وتمتمت زوجة الجنرال فى انفعال خافت :

ـ ألم أقل لكن ؟!

لم تنبس إحداهن ببنت شـفة ، وكلهن يتطلَّعن إليـه فـى لهفة وترقُّب ..

ثم فجأة ، أدار (دافى) عينيه نحـو زوجـة سكرتير وزير الصناعة الإسرائيلى ، وقال بصوت عميق مهيب ، وكأنما يتحدَّث إلى ذلك الشبح الخفى :

ـ قصة ميراث (بلغاريا) لا أساس لها من الصحة .

امتقع وجه زوجة السكرتير ، وهى تسأله فى شحوب :

ـ ماذا تعنى ؟!

تجاهل سؤالها تمامًا ، ولم يحاول إجابته ، وهو ينطلق ليروى لها العديد من تفاصيل حياتها السابقة ، بكلمات موجزة مقتضبة ، وعلى نحو أثار انبهار وذهول الجميع ، قبل أن يشير إليها بيده ، مضيفًا :

ـ ولكن زوجك يواجه خطرًا كبيرًا .. وقريبًا .

كادت المرأة تسقط فاقدة الوعى ، مع العبارة الأخيرة ، وتشبثت به ، محاولة معرفة المزيد ، فى هلع وذعر ، إلا أن جسده انتفض كله ، وراح يُحدق فيها بدهشة مذعورة ، قبل أن يُنكر كعادته كل ما قاله ، ويقسم بأنه لا يذكر حرفًا واحدًا منه .. وانفضّ الحفل ، دون أن يُضيف (دافى) جديدًا ، وقضى ليلته فى حجرة خاصة بخدم المنزل ، فى حين عادت زوجة سكرتير وزير الصناعة إلى منزلها شاحبة ممتقعة ، ولم يغمض لها جفن طوال الليل ..

وفى الصباح التالى مباشرة ، وصلت إلى النائب العام الإسرائيلى كومة من الأدلة ، حول وقائع فساد ورشوة واستغلال نفوذ ، وانحرافات شتى لسكرتير وزير الصناعة ..

وكانت فضيحة كبرى فى (إسرائيل) ..

وقنبلة تفجّرت حول (دافى كرينهال) ، الذى فاقت شهرته الآفاق ، وذاع صيت نبوءة الحفل ، فعلا شأنه ، وتحسنت سمعته ..

وفى ليلة وضحاها ، أصبح الشاب يحمل لقب العرّاف الرسمى للكبار فى (إسرائيل) ..

الكبار فقط ..

ومع شهرة كهذه ، كان من الطبيعى أن تتدخّل المخابرات الإسرائيلية ..

وبكل قوتها .

* * *

٥ـ الذئــــاب ..

« الإسرائيليون يراجعون ملف (دافى كرينهال) !! »

نطق رجل المخابرات المصرى (سليمان) بالعبارة ، فى لهجة حملت ما يشعر به من توتر وقلق ، ولكن ملامح (أمجد) ظلت جامدة متماسكة ، وهو يقول فى حزم :

ـ أمر طبيعى .. (أشرف) أصبح ضيفًا شبه دائم ، فى كل الحفلات غير الرسمية ، التى تضمَ جنرالات (إسرائيل) وكبار مسئوليها ، ومن غير المعقول ألا تسعى المخابرات الإسرائيلية إلى التأكُد من سلامته أمنيًّا .

سأله زميله (ويليام) فى حذر :

ـ ألا تشعر ، ولو بقليل من القلق .

صمت (أمجد) طويلاً هذه المرة ، وكأنما يبذل جهدًا لكتمان ذلك التوتر المستعر فى أعماقه ، قبل أن يُجيب :

ـ لقد أدينا واجبنا بقدر استطاعتنا ، وبذلنا قصارى طاقتنا ، لنؤمن له تغطية سليمة مائة فى المائة .. ولاتنس أننا قد زرعناه فى (أوكرانيا) ، قبل أن يُهاجر إلى (إسرائيل) بعام

كامل ، والمفترض عندما يُراجعون ملفه ، أو يتحرون أمره ، أن يتوصلوا إلى ما صنعناه نحن ، وليس إلى الحقيقة .

ران على ثلاثتهم صمت طويل ، قبل أن يُغمغم (سليمان) :

ـ ولكن ، ماذا سيحدث لو أنهم كشفوا أمره ؟!

صمت (أمجد) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يُجيب فى حزم وصرامة واقتضاب :

ـ كارثة .

نطقها ، وانطلق عقله يستعيد تفاصيل لقائه الأول مع (أشرف) ..

(أشرف الطحان) ..

العــرّاف ..

* * *

عشرات الاحتمالات وضعها الشاب فى رأسه ، وهو يهرع إلى منزل أسرة والده الراحل ، وفى ذلك الحى الشعبى فى (الإسكندرية) ..

احتمالات لرفض عودته ، أو استنكارها ، أو حتى القلق منها ..

احتمالات شتى ، ليس من بينها ما وجده أمامه بالفعل ..

انهيـــار ..

منزل أسرة والده انهار ، منذ ما يقرب من عام ، ودفن كل سكانه تحت أنقاضه ، فيما عدا ابنة عمه (وفاء) ، التى عادت من مدرستها ، لتجد أنها قد فقدت عائلتها كلها بضربة واحدة ..

وحتى هى ، قضت بعض الوقت ، تتنقل بين مساكن أهل الخير فى الحى ، ثم خرجت ذات يوم للبحث عن عمل ، ولم تعد بعدها أبدًا ..

يومها بكى الشاب كثيرًا وطويلاً ، وراح ينعى حظه العاثر ، الذى جعله يعود إلى (مصر) ، ليضيع فيها وحيدًا غريبًا ، دون قريب أو صديق ..

ولأنه لم يكن يملك قوت يومه ، فقد بدأ الشاب على الفور عملية البحث عن لقمة العيش ، ولكنه لم يكن يُجيد أية حرفة تعينه عليها ؛ لذا فقد راح يواجه أعاصير الدنيا

وعواصفها بجسده الضئيل الضعيف ، فيعمل يومًا أو بضع يوم ، وينهك نفسه فى البحث أيامًا ، ثم لا يجد سوى مكان صغير داخل أحد المساجد ، ليقضى ليلته حتى الصباح التالى ، دون أن يلجأ ولو مرة واحدة ، إلى تسول ما يقتات به ، مهما بلغ جوعه وضعفه ..

حتى كان ذلك اليوم ..

كان يجلس منهكًا ، داخل مسجد سيدنا (الحسين) فى (القاهرة) ، عندما سمع بالمصادفة حديثًا بين سيدتين ، فقدت إحداهما ابنها وسط الزحام ، ويئست فى العثور عليه ، فجاءت تبكى ، وتناشد (الحسين) التوسُّط لها لتجده وتستعيده ، كعادة البسطاء فى (مصر) ..

يومها شعر بالشفقة على المرأة ، فربت على كتفها قائلاً :

ـ ولدك سيعود .

التفتت إليه المرأتان فى دهشة ، وفاتهما أنه قد سمع حوارهما ، لتسأله إحداهما فى لهفة :

ـ حقًا يا سيِّدنا .

لمح الأمل واللهفة فى عيونهما ، وخشى أن يقتله بإجابة صادقة صريحة ؛ لذا فقد تظاهر بالشرود والغياب الروحانى ، وهو يقول :

ـ الليلة .. الليلة سيعود .

خفق قلبا المرأتين فى لهفة وانبهار ، وراحتا تغمرانه بالشكر والدعاء ، وتعدانه بكل غال وثمين ، لو تحققَت نبوءته ، ثم انصرفتا وقد أعادت إليهما كلماته الأمل ..

كل الأمل ..

أما هو فقد نسى الأمر برمته فور انصرافهما ، وعاد يبحث عن لقمة عيش تسد رمقه ، و ....

ـ كارثة !

انتزع هتاف (ويليام) زميله (أمجد) من ذكرياته ، فالتفت إليه بسرعة ، ورآه يُطالع برقية عاجلة ، وهو يُكمل فى توتر زائد :

ـ المخابرات الإسرائيلية استدعت (دافى) إلى مقرّها فى (تل أبيب) ، وسيختبرونه بجهاز كشف الكذب .

وانعقد حاجبا (أمجد) فى شدة ..

فلقد كان هذا هو الاختبار الذى يُقلقه منذ البداية ..

الاختبار الحقيقى ..

* * *

كأى شخص بسيط فى مثل موقفه ، راح الشاب يرتجف فى رعب ، وزاغت نظراته وسط وجهه النحيل ، وهو يقول :

ـ إننى لم أفعل شيئًا .

رمقه ضابط المخابرات الإسرائيلى بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـ لو أنك لم تفعل شيئًا حقًّا ، فليس هناك ما تخشاه .

وبإشارة من يده ، راح الخبراء يوصلون جسد الشاب بأسلاك وأنابيب جهاز كشف الكذب ، فتطلّع إليهم فى رعب ، هاتفًا :

ـ ماذا سيفعلون بى ؟!

أجابه ضابط المخابرات الإسرائيلى (رافيف) ، بنفس الصرامة :

ـ إنه مجرَّد اختبار .

هتف (دافى) فى ذعره وهو يُحدِّق فى الأسـلاك المتصلة بجسده :

ـ هل .. هل ستكهربون جسدى ؟!

زمجر (رافيف) ، قائلاً ـ بلهجة جعلته أقرب إلى الذئاب :

ـ قلت لك ، أنه مجرد اختبار .

وفى رفق ، ربت أحد الخبراء على كتف الشاب ، قائلاً :

ـ اطمئن .. سنلقى عليك بضعة أسئلة فحسب ، وهذا الجهاز سيقيس ردود أفعالك .

سأله الشاب فى ذعر :

ـ لمـاذا ؟!

زمجر (رافيف) مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لنعلم ما إذا كنت صادقًا أم كاذبًا .

هتف الشاب فى سرعة :

ـ أنا لم أكذب .

قال الخبير بابتسامة ودود :

ـ ليس هناك ما تخشاه إذن .

قالها ، وتراجع بعد أن وصل الجهاز بجسده جيِّدًا ، واستدار يُشير إلى ضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى أشار إليه بدوره ، لِيبدأ الاختبار ..

وكما يحدث دومًا ، بدأ الخبراء يُلقون على الشاب أسئلة عادية بسيطة ، وهو يُجيب أسئلتهم فى حذر قلق ، والجهاز يسجل كل ما يصدر عنه ، والخبراء يرصدون الإشارات والمنحنيات ، و ...

وفجأة ! اعتدل كبير الخبراء ، وسأله فى حزم :

ـ (دافى كرينهال) .. هل تعمل لحساب المخابرات المصرية ؟!

وخُيِّل للشاب أن كل شىء فى الحجرة قد توقَّف بغتة .. حتى قلبه .

* * *

٦ـ الطريق الصعب ..

« بركاتك يا سيِّدنا .. »

فوجئ الشاب بالصيحة الهادرة ، التى تحمل كل فرح الدنيـا ، وهو يجلس داخل مسجد (الحسين) ، مرتكنًا بظهره إلى الجدار ، ومعدته تئن ألمًا من فرط الجوع ، وتشارك جسده ذلك الإرهـاق ، الذى صار جزءًا من تكوينه ، فوثب من مكانه مذعورًا ، وتساءل فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

هجمت عليه المرأتان ، اللتان رآهمـا صباح أمس ، وهويتـا على كفيه بالقبلات ، وانطلقت منهما الزغاريد ، على نحو أدهشـه وأربكه ، قبل أن تفاجئه إحداهما بدس حفنة من أوراق النقد فى يده ، وهى تبكى فى سعادة ، هاتفة :

ـ ابنى عاد يا سيِّدنا .. عاد ليلة أمس كمـا أنبأتنا .. بركـاتك يا سيِّدنا .. بركاتك ..

مع الضجة التى أحدثتاها ، التفَّ رواد المسجد حولهمـا ، وحول الشاب ، الذى ألجمت المفاجأة والدهشة لسانه ، ومنعه

الخجل من الاعتراف بالحقيقة ، كما منعه الجوع مـن إعـادة النقود إلى المرأة ، فدسَّها فى جيبه ، وهـو يتصنَّـع الوقـار ، قائلاً :

ـ إنها إرادة الله .. إنها إرادة الله .

كلماته القليلة ، مع شحوبه ونحوله ، جعلت الكل يتحدَّث عن كراماته الوهمية ، ودفع البعض إلى التقرُّب منه ، إلا أنـه لم يلبث أن انسلَّ من بينهم ، وتسلل خارج المسجد ، وهرع بكل جوعه ولهفته إلى أقرب مسمط ، ليملأ معدته بكل ما لذَّ وطاب ، ويسكت صرخات جوعها ، التى طالت أكثر مما ينبغى ..

وبعد أن امتلأت معدته ، وراح يزوِّدها بكوب مـن الشـاى الساخن ، على مقهى قريب ، سمع من خلفه صوتًا يقول فى هدوء :

ـ كانت لعبة بارعة يا هذا .

ابتسم ، دون أن يلتفت إلى صـاحب الصـوت ، وأسبل جفنيه فى تراخ ، قائلاً :

ـ أنا لم أفعل شيئًا .. النـاس هى التى تصوَّرت ما أرادت أن تُصدِّقه وما تميل إلى تصديقه .. صدقنى .. كل مخلـوق ،

مهما بلغت ثقافته أو مكانته ، يمكن أن ينبهر ، إذا مـا تعلَّق الأمر بمستقبله .

غمغم الجالس خلفه ، فى صوت يوحى بالتفكير العميق :

حقًّا !

ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن يستطرد :

ـ هل تعلم أنك قد زرعت فى رأسى فكرة .. فكرة مبتكرة جدًّا .

شعر (أشرف) بشىء من الرهبة والمهابة ، مع ذلك الصوت العميق الرصين ، فاستدار إلى صاحبه ، الذى يجلس خلفه مباشرة ، ولكنـه وجده قد نهض ، وغادر مقعده ، وابتعد ليختفى وسط الزحام ..

كل ما لمحه هو ظهره ، وجزء من مؤخـرة رأسه فحسب ، ثم لم يهتمّ حتى بتتبعه ، ولو ببصره ، فقد تصوَّر أنه مجرَّد عابر سبيل ، وأنه لن يلتقى به مرة ثانية أبدًا .. ولكنـه كـان مخطئًا فى تصوره هذا ..

مخطئ تمامًا ..

ـ « هل تعمل لحساب المخابرات المصرية ؟! »

كرَّر خبير جهاز كشف الكذب سؤاله ، عندما طال صمت (دافى) ، فرفع هذا الأخير رأسـه وعينيه إليه ، واستعاد جسده فى لحظة واحدة كل ما تعلَّمه ، وما تدرَّب عليه فى المخابرات العامة المصرية ..

ولثوان أخرى ، لم ينبس ببنت شفة ..

لقد استنفد كل إرادته ، واستخدمها للسيطرة على أعصابه ومشاعره ، كما علمه (أمجد) ، ودفع كيانه كله إلى عالم آخر وهمى ، وهو يُجيب بكل الثقة :

ـ كـلاً .

لم يكد ينطقها ، حتى تعلَّقت أبصار ومشاعر الكل بمؤشرات جهاز كشف الكذب ، فى انتظار ما ستعلن عنه ..

ولكن النتيجة جاءت مدهشة ..

مدهشة بحق ..

* * *

راجع الجنرال الإسرائيلى (كوهين) ذلك التقرير ، الـذى قدَّمـه إليه رجل (الموساد) (رافيف) ، قبـل أن يمطّ شفتيه ، ويهزّ رأسه ، ويقول لهذا الأخير :

- إذن فالنتائج كلها سلبية ، وذلك المزارع لا غبار عليه .

أجابه (رافيف) فى حزم :

- بالتأكيد يا جنرال .. لقد أشرفت على الاختبار بنفسى ، ولو أردت رأيى فذلك الشاب (دافى) أقل شأنًا من أن يكون جاسوسًا بارعًا كما شككنا ، ثم إن اجتياز اختبار جهاز كشف الكذب ليس بالأمر السهل ، فالمرء إما أن يكون صادقًا ، أو عبقريًّا إلى حد مذهل .

ثم أطلق ضحكة ساخرة ، قبل أن يُضيف :

- وهو ليس عبقريًّا بالتأكيد .

وافقه الجنرال (كوهين) بإشارة من يده ، وإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا ما توقعته بالضبط ، ولكن الحذر أفضل من الوقوع فى الخطأ .. أليس كذلك ؟!

أجابه (رافيف) فى سرعة :

- بالتأكيد يا جنرال .. بالتأكيد .

صمت الجنرال (كوهين) لحظة أخرى ، وهو يلقى نظرة أخيرة على التقرير ، قبل أن يلقيه جانبًا ، ويقول فى صرامة :

- هاته إلى هنا .. أريد أن ألتقى به .. وحدنا .

لم تمض دقائق على قوله هذا ، حتى كان (دافى) يجلس قبالته ، بجسده الضئيل النحيل ، فنهض جنرال ضخم الجثة ، وراح يدور حوله ، ويرمقه بنظرات صارمة قاسية حادة ، جعلت الشاب يشعر بقلق عارم ، ويتساءل عن مصيره ..

ولكن فجأة !

توقف الجنرال (كوهين) ، ومال نحوه ، وسأله بلهجة ذهبت صرامتها ، واكتست بالكثير من اللهفة والشغف :

- قل لى ، هل سأحصل قريبًا على منصب رئيس الأركان ؟!

وبالكاد ، أخفى الشاب تلك الابتسامة الظافرة ، التى قاتلت لتثب إلى شفتيه ووجهه ..

فالآن .. والآن فقط ، أدرك أنه قد اجتاز حاجز الخطر ، وعبر الطريق الصعب ..

وبكل نجاح ..

★ ★ ★

بعد اجتياز (دافى) لاختبار جهاز كشف الكذب بنجاح ، أزيلت كل الحواجز بينه وبين مجتمع الجنرالات فى

(إسرائيل) ، وأصبح ضيفًا رسميًا فى كل حفلاته واجتماعاتـه ، وذاعت شهرته فى (تل أبيب) كلها ، ثم فى (إسرائيل) من أقصاها إلى أقصاها فى المرحلة التالية ..

ولأن المجتمـع الإسـرائيلى لا يقتصـر علـى الجـنرالات فحسب ، فقد بـدأ (دافـى) يتسلَّل إلـى حفـلات السياسيين ، والاقتصاديين ، وحتى رجال الدين اليهودى وحاخاماتهم .

وعلى الرغم من كل ما أحيط بـه ، مـن الاهتمـام والأبهـة والفخفخة ، لم يتغيَّر (دافى كرينهال) قط ، وإنما ظلّ كما هـو ، ضئيلاً ، نحيلاً ، شـاحبًا ، صامتًـا ، بسيطًا ، مستكينًا ، علـى نحو اعتاده الكل ، واعتادوا تجاهله ، وعدم الاهتمـام بوجـوده ، وهم يناقشون مشكلاتهم ، وأسرارهم ، حتى السياسية والعسكرية منها ..

الشىء الذى لم يُدركه أحد منهـم ، هـو أن (دافى) كان يتميَّز بأذنين كبيرتين ، وذاكرة مدهشة ، جعلتـه قـادرًا علـى اختزان كل ما سـمعه مـن أخبـار وأسرار ، حتى يُفرغه كلـه فى جعبة عميل مصرى آخر ، يتولَّـى نقلـه إلـى الرجال فـى (القاهرة) ..

وهناك ، كان (أمجد) يتلَقَّى كل ما يرسله (دافى) ، ويشعر بالارتياح لأن خطته قد آتت ثمارها ، و .....

ولكن فجأة ، وصل ذلك الخبر ، من (إسرائيل) ..

خبر خطير ..

للغـايـة .

★ ★ ★

٧- الزائـــر ..

قفزت فكرة العملية كلها إلى رأس رجل المخابرات (أمجد) ، وهو يجلس على ذلك المقهى البسيط فى ساحة مسجد (الحسين) فى (القاهرة) ..

فى البداية ، بدت كفكرة مجنونة ، تصلح لعملية نصب كبرى ، ولكنها لاتناسب جهاز مخابرات كفء ، مثل جهاز المخابرات العامة المصرية ..

ولكن تلك الفكرة المجنونة راحت تتبلور فى ذهنه رويدًا رويدًا ، وتتطورّ ، وتبدو أكثر عقلانية وحداثة .. بل وعبقرية أيضًا ، حتى جاءت لحظة أصبحت فى ذهنه منطقية تمامًا ، ولكنها تحتاج إلى جهد حقيقى لتنفيذها ..

ولسبب ما ، تعلقت الفكرة فى ذهنه بصاحبها ، فراح يجمع المعلومات عن (أشرف) ، ويتحرّى ماضيه وماضى أسرته بدقة مدهشة ، وقد بدا له ، بشحوبه ونحوله ، وتمثيله الفطرى البسيط ، مناسبًا جدًّا للدور الذى اخترعه فى خطته ..

وذات ليلة ، وفى اجتماع طلب عقده شخصيًا ، طرح الفكرة كلها على رفاقه فى جهاز المخابرات ، وطرح معها تحرياته عن (أشرف) ..

ولقد بدت الفكرة للكل مجنونة بالفعل ، إلا أن هذا الجنون نفسه لم يلبث أن جذب انتباههم وعقولهم ، فراحوا يناقشون كل التفاصيل ، حتى إن الاجتماع قد امتدّ بهم إلى ساعات الصباح الأولى ، قبل أن يتخذوا قرارهم بوضع الفكرة موضع التنفيذ ..

وهنا بدأ (أمجد) اتصاله بالمرشّح الأوّل لتنفيذها (أشرف الطحان) ..

ودون الدخول فى تفاصيل طويلة ، يكفى أن نقول إن (أمجد) قد وجد فى (أشرف) خامة طيبة ، واستعدادًا فطريًا ، ساعده على صقله ، وترويضه ، وتأهيله للمهمة التى أعدّه لها ..

فى البداية التقى به فى مسجد (الحسين) ، وعرض عليه عملاً جيدًا ، براتب كاف فقبل (أشرف) العرض على الفور ، قائلاً :

- أى عمل أفضل من تسوّل لقمة العيش ، والاحتيال على البسطاء ..

ولم يُعلق (أمجد) على عبارته ، حتى حملتهما سيارته بعيدًا ، وسأله (أشرف) فى اهتمام :

ـ وما طبيعة العمل لديك بالضبط ؟!

ابتسم (أمجد) ابتسامة باهتة ، وهو يُجيب :

ـ نفس ما تقوم به الآن ، ولكن على نحو أكثر تنظيمًا .. واحترامًا .

سرى القلق فى نفس (أشرف) ، وهو يسأله :

ـ نفس ما أقوم به ! وما الذى أقوم به بالضبط ؟!

أجابه (أمجد) فى حزم صارم :

ـ الاحتيـال .

شهق (أشرف) فى ذعر ، وصاح بكل استنكار الدنيا :

ـ الاحتيـال ! هل ستستأجرنى للاحتيـال على البسطاء والمساكين ؟!

أجابه (أمجد) بنفس الحزم والصرامـة ، وهو يميل بسيارته إلى جانب الطريق :

ـ ستلعب دور المحتـال الذكى يا (أشـرف) ، ولكن ليس على البسطاء ، وإنما على الذئاب .

بُهت (أشرف) بالجواب ، فكرَّر بدهشة قلقة :

ـ الذئـاب !

وهنـا ضـغـط (أمجـد) فرامـل سـيارته ، وأوقفهـا جانبًا ، ثـم التفـت يتطلَّـع إلـى عينـى (أشرف) مباشـرة ، قـائلاً :

ـ أنا ضابط فى المخابرات العامة المصرية يا (أشرف) .

اتسعت عينا (أشرف) ، وهو يُحدق فيـه دون أن ينبس ببنت شـفة ، فتابع بمنتهى الحزم :

ـ (مصر) بحاجة إلى تعاونك يا (أشرف) .

وبتلقائيـة مدهشـة ، وفطـرة وطنيـة مخلصـة ، هتـف (أشرف) :

ـ وأنا رهن إشارتها .

وكانت هذه هى البداية ..

ـ « مُفاجأة جديدة من (تل أبيب) ! »

هتف (سليمان) بالعبارة ، وهو يندفع إلى حجرة مكتب (أمجد) ، الذى رفع عينيه إليه فى قلق ، متسائلاً :

ـ ماذا حدث هذه المرة ؟!

مال نحوه ، مُجيبًا فى انفعال :

ـ الليلة سيحضر (دافى كرينهال) ، بصحبة الجنرال (كوهين) ، حفل استقبال وفد سوفيتى اقتصادى خاص ، يزور (إسرائيل) لأوّل مرة .

سأله (أمجد) فى حذر :

ـ وماذا فى هذا ؟!

لوّح (سليمان) بيده مجيبًا :

ـ هل تعلم من يرأس ذلك الوفد ؟!

ثم مال نحوه أكثر ، وأضاف ، دون أن ينتظر جوابًا :

ـ (أليكس بتروفا) .. جد (أشرف) .

واتسعت عينا (أمجد) عن آخرهما ..

★ ★ ★

لم يدر (دافى) لماذا شعر بقلق زائد ، فى تلك الليلة بالذات ، وهو يستعد لحضور حفل استقبال الوفد السوفيتى المحدود !!

كان بالنسبة إليه مجرّد حفل ، عليه أن يحضره برفقة أحد الجنرالات ، كما لو كان مجرّد حيوان أليف ، يصطحبه صاحبه ليزهو به ، فى كل لقاءاته واجتماعاته ، وعليه أن يلعب فيه دوره المعتاد ، مستخدمًا معلومة جديدة ، من تلك المعلومات التى تُزوده بها المخابرات المصرية ، كل حين وآخر ..

فى البداية ، كانت تلك المعلومات تدهشه شخصيًا ، وكان يتساءل : كيف تتمكن المخابرات المصرية من الحصول عليها بهذه الكفاءة ؟!

ولكنه ، ومع مرور الوقت ، اعتاد هذا الأمر ، وألقى دهشته وانبهاره جانبًا ، مكتفيًا بأداء دور العرّاف كما ينبغى ..

لا شيء جديد ..

فلماذا يشعر بكل هذا القلق الليلة إذن ؟!

ظلّ هذا الخاطر يلحّ على ذهنه فى إصرار ، حتى انتزعته منـه بغتـة طرقـات منتظمـة ، علـى بـاب حجرتـه الصغيرة ، بإيقاع يحفظـه عن ظهر قلب ، فأسرع إلى البـاب ، وفتحه قائلاً فى لهفة :

ـ هل من جديد ؟!

دلف أحد سقاة الحفل إلى الحجرة فى سرعة ، وقال فى توتر :

ـ أحمل إليك رسالة عاجلة من (القاهرة) .

كانت أول مرة منذ بدأت مهمته ، ترسل فيهـا (القـاهرة) إليه رسالة عاجلة ، إلى الحد الذى يستدعى تجاوز إجراءات الحـذر والأمـن التقليدى ، وإبلاغه بها على هـذا النحـو ؛ لـذا فقـد اختطـف البرقيـة المشـفَّرة مـن يـد الرجـل فـى لهفـة ، وفضّها فـى سرعة ، واتّسعت عينـاه فـى ارتيـاع ، وعقـلـه يترجـم كلماتهـا القليلـة إلـى جملـة واحـدة محدودة :

ـ « جدك ضيف بالحفل .. »

حدّق فى البرقيـة طويلاً ، غير مُصدّق ما استوعبه منهـا ، ثم لم يلبث أن دسّها فى جيبه ، وهو يقول للرجل فى عصبية :

ـ من المحتم ألا أحضر هذا الحفل .

بُهت الرجل ، وهو يتساءل :

ـ ولكن كيف ؟!

أمسك ذراعيه فى قوة ، قائلاً :

ـ بأية وسيلة .. بأية حجة .. أخبرهم أننى مريض ، أو فاقد الوعى ، أو ...

قبل أن يُتمّ عبارته ، ارتفع صوت طرقة قويـة علـى بـاب حجرته ، مصحوبًا بصوت الجنرال (كوهين) الجهورى ، وهو يهتف :

ـ افتح يا (دافى) .

أشار (دافى) إلى الساقى ، قـائلاً بلهجة حازمـة آمرة ، لا تتناسب مع ضآلة جسده :

ـ أنت هنا لأننى استدعيتك لإسعافى من دوار مفاجئ .. هل تفهم ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، فأسرع (دافى) بفتح الباب للجنرال ، و ...

وتجمَّدت كل ذرة فى كيانه ..

هذا لأن الجنرال لم يكن وحده ، وإنما كان بصحبة آخر شخص .. يتمنى (دافى) رؤيته ، فى تلك اللحظة ، وفى مثل هذه الظروف ..

جـده .

★ ★ ★

٨- الحفيـــد ..

لثوان ظلّ (دافى) جامدًا ، يُحدّق فى جده (أليكس بتروفا) ، الذى يقف على بعد سنتيمترات منـه ، قبل أن يقول الجنرال (كوهين) فى مرح غليظ :

- ضيفنا لا يُصدّق شيئًا مما يسمعه عنك يا (دافى) .

حاول (دافى) أن ينطق شيئًا ، إلا أن الكلمات احتبست فى حلقه ، وهو يتطلّع إلى جـده ، الذى ظلّت ملامحه جامدة باردة كعادته ، حتى قهقه الجنرال ضاحكًا ، وهو يربت على ظهريهما معًا ، قائلاً :

- ماذا أصابكما ؟!

كان ارتباك (دافى) حقيقيًا ، وهو يقول :

- الواقع أننى .. أننى لم أتوقّع زائرًا غريبًا ياسيّدى الجنرال ..

قهقه الجنرال مرة أخرى ، وكأنما يروقه ضعف (دافى) وارتباكه ، واستدار إلى ضيفه السوفيتى ، قائلاً بالإنجليزية :

- نسيت أن أخبـرك أن (دافى) خجـول للغاية يا سيّدى (بتروفا) .

وهنا .. هنا فقط ، انفرجت شفتا الجد ، ليقول فى هدوء عجيب :

ـ هذا يبدو واضحًا .

ثم امتدّت يده لتصافح (دافى) وهو يقول بالروسية :

ـ لا يمكنك أن تتصور كم تسعدنى رؤيتك .

ارتجفت أصابع (دافى) فى يد جده ، وحارت عيناه ، وهما تتطلّعان إلى عينى هذا الأخير ، وعقله يتساءل فى توتر :

ـ أمن الممكن ألا يتعرّفه جده ؟!

هذا مستحيل ! مستحيل تمامًا !

ولكن الجد صافحه فى برود ، وعلى نحو يوحى باللامبالاة ، ثم استدار إلى الجنرال ، قائلاً :

ـ إنه كما وصفته تمامًا يا جنرال .

ابتسم الجنرال فى زهو ، كما لو أن أحدًا قد أثنى على قطه الأليف الأثير ، ثم أشار بيده ، قائلاً :

ـ هيا يا (دافى) .. سأقدّمك إلى عدد جديد من الأصدقاء .

أومأ (دافى) برأسه إيجابًا فى استسلام ، وتبعهما فى صمت إلى الحفل ، الذى بدا له صاخبًا أكثر من المعتاد ، فى حين بدا هو للكل شاحبًا ممتقعًا ، شاردًا أكثر من المعتاد ..

وعلى الرغم من أن المخابرات المصرية قد زوّدته ببعض المعلومات المهمة ، التى تصلح للعب دور العرّاف الليلة ، إلا أنه لم يجد فى نفسه أدنى ميل لهذا ؛ لذا فقد انتهز انشغال الكل فى تناول طعام العشاء ، وتسلّل إلى الشرفة ، وراح يملأ صدره بالهواء البارد ، فى محاولة لتهدئة أعصابه الثائرة ..

ـ « لقد أسعدتنى رؤيتك بحق .. »

قفز من مكانه ، عندما انبعث الصوت الرصين من خلفه فجأة ، واستدار إلى صاحبه فى سرعة ، ووقع بصره على جده ، الذى تقدم نحوه ، قائلاً فى خفوت ، بحيث لا يسمعه سواه :

ـ إنك لم تحاول الاتصال بى قط منذ فرارك من (أوكرانيا) .

حدّق (دافى) فى وجهه لحظة بدهشة مذعورة ، قبل أن ترتجف شفتاه ، وهو يُغمغم :

ـ إذن فقد تعرّفتنى .

ارتسمت ابتسامة حنان على شفتى الجد ، وهو يقول :

ـ وهل يمكن أن أنسى حفيدى الوحيد ؟!

لوّح بيده فى انفعال ، وجد سبيله إلى صوته ، وهو يهتف فى خفوت :

ـ ولكنك لم ..

قاطعه جده بإشارة من يده ، وقال فى حنان :

ـ لقد أدركت فورًا أنك تخفى هويتك الحقيقية لسبب ما ، وكان من المستحيل أن أكون أنا سبب كشف أمرك .

حدّق (دافى) فى وجهه مرة أخرى ، قبل أن يهمس :

ـ ينبغى أن تعلم أن ..

قاطعه جده مرة أخرى ، واكتست ابتسامته بحنان جارف ، وهو يهمس بدوره :

ـ لا أريد أن أعلم شيئًا .. أنت شخص ناضج .. افعل ما يحلو لك ، وثق أن سرك لن ينكشف قط .. ليس عن طريقى ، مهما كانت الأسباب ، ومهما ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع من خلفهما صوت الجنرال (كوهين) ، وهو يهتف :

ـ آه .. أنتما معًا إذن !

استدارا إليه فى آن واحد ، وظلّ وجه (دافى) على شحوبه ، فى حين ارتسمت على شفتى الجد ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ كنت أتحدّث معه بعض الوقت .

هتف الجنرال :

ـ كاذب .

ثم عاد يبتسم فى خبث ، وهو يتقدّم منهما ، مستدركًا :

ـ اعترف أنك كنت تأمل أن يخبرك بواحدة من نبوءاته .

أطلق الجد ضحكة قصيرة ، قائلاً :

ـ ربما كان هذا صحيحًا .

لم يكد يُتمّ عبارته ، حتى قبض (دافى) بكفه على كتفه فجأة ، على نحو جعل الروسى يلتفت إليه فى دهشة ، فرآه زائغ البصر شارده ، وهو يقول بالروسية :

ـ يبدو أنك ستستعيد حفيدك ، فى القريب العاجل .

هتف الجنرال (كوهين) فى انبهار :

ـ ماذا قال لك ؟! هه .. بم تنبأ ؟!

ابتسم الجد ابتسامة كبيرة ، منحها كلها لحفيده ، قبل أن يلتفت إلى الجنرال ، ويقول فى هدوء ، لم يخل من السعادة :

ـ تنبأ بما أتمنى تحققه يا جنرال .

هتف الجنرال فى حماس :

ـ اطمئن يا رجل .. كل نبوءاته تتحقّق .

غمغم الجد :

ـ أتعشّم هذا .

وألقى نظرة على حفيده ، قبل أن يتجه فى خطوات كبيرة سريعة إلى الحفل فى الداخل ، فلوح الجنرال بسبّابته فى وجه (دافى) ، وقال :

ـ أرجو ألا تكون هذه هى نبوءتك الوحيدة الليلة .

ولكن (دافى) لم يجب ..

لقد ظلّ شاردًا ..

وبحق هذه المرة ..

* * *

تطوّر أداء الشاب كثيرًا ، بعد هذه الواقعة ، ولعدة أشهر تالية ، وتوطدت صلاته بالجنرالات ، وكبار المسئولين ، ورجال المجتمع والسياسة فى (إسرائيل) ، وراح الكل يتنافس على استضافته ، حتى إنه خلال ثلاثة أعوام كاملة ، قضاها فى (تل أبيب) ، لم يكن له سكن مستقل قط .

وفى (القاهرة) ، كان هناك فريق كامل من الرجال ، يعمل عبر شبكة من العملاء ، فى كل مكان فى

(إسرائيل) ، لتزويده بالمعلومات ، التى تجعل تنبوءاته المزعومة أكثر دقة وتأثيرًا ..

وعلى قدر ما يجشمهم هذا من وقت وجهد ومال ، كانت المعلومات الغزيرة ، التى يحصل عليها الشاب ، من اختلاطه بالكبار ، تساوى كل هذا وأكثر ، وتدفعهم إلى بذل المزيد ، دون كلل أو ملل ..

وحتى لا يتحوّل الشاب إلى (موضة) قديمة ، يملها الكبار ، ويسعون للبحث عن غيرها ، عمل الرجال على أن يُفجّر كل عدة أشهر ، قضية ضخمة ، من خلال نبوءة مزعومة ، يلقيها وسط جمع من المشاهير ، ليشغل المجتمع الإسرائيلى كله بعض الوقت ، ويعود كل فترة وأخرى إلى بؤرة الضوء ..

أما الشاب نفسه ، فقد بدأ يشعر بالإرهاق والملل والإجهاد ، بعد أن ظلّ يلعب الدور نفسه لثلاث سنوات متواصلة ، من نهايات ١٩٦٨م ، وحتى أواخر ١٩٧١م ، وبدأ يرجو (القاهرة) أن تعفيه من مهمته هذه ، وأن تسمح له بالعودة إلى الوطن ، والاستقرار هناك ..

ومع إلحاحه المستمر ، قررَت (القاهرة) أن تخطو خطوة جديدة ..

خطوة حاسمة ..

وجريئة .. للغاية .

★ ★ ★

٩ـ الرحـــــلة ..

« ما رأيك فى رحلة سياحية مجانية إلى (قبرص) ؟! »

ارتسمت ابتسامة واسعة كبيرة علـى شـفتى الجـنرال (كوهين) ، وهو يُلقى السؤال على الشاب ، الذى بدت عليه دهشة حقيقية ، وهو يسأل :

ـ وما المناسبة ؟!

ضحك الجنرال (كوهين) ، وهو يقول :

ـ لى صديق يمتلك (ماجى تورز) للسياحة ، وهو يقول :

ـ إن وجودك وسط الرحلة ، سيجلب له زبائن عديدين .

فغر الشاب فاه فى دهشـة كبيرة ، وهو يُحدّق فى وجـه الجنرال (كوهين) ، وعقله يستعيد تفاصيل البرقيـة ، التى وصلته من (القاهرة) ، منذ ساعة واحدة ، والتى يُحددون لـه فيها موعدًا للقاء أحد رجال المخابرات المصرية فى (قبرص) ، فى أوائل الأسبوع التالى ، وكأنهم هم الذين يقرءون الغيب فعليًا ..

وفى حماس ، تابع الجنرال ، دون أن ينتبه إلى دهشة (دافى) وانبهاره :

ـ لقد أبلغته موافقتك ، وعليك أن تستعد للسفر ، فى نهاية هذا الأسبوع .

انتزع الشاب نفسه من ذهوله دفعة واحدة ، وإن لم ينجح فى إبعاد شحوبه ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا جنرال .

قالها ، وهمّ بالانصراف ، لولا أن تذكّر فجأة المعلومة الأخرى ، التى وردت فى البرقية ، فتوقّف فى مكانه ، وترك عينيه تشردان ، ووجهه يزداد شحوبًا ، مع تسارع أنفاسه ، فحدّق فيه الجنرال ، وخفق قلبه فى سرعة ، وهو يُردّد فى انفعال :

ـ لقد جاءك شىء .. أليس كذلك ؟! أليس كذلك يا (دافى) ؟!

لم يبد على (دافى) حتى إنه يسمعه وهو يُشير بيده كسحرة الهنود، قائلاً بذلك الصوت العميق، الذى يحدِّث أشباحًا خفية :

- ستثبت جدارتك بحق، فى قيادة خط (بارليف) يا جنرال .

كاد قلب الجنرال يثب من بين ضلوعه، وهو يهتف :

- ماذا قلت ؟! ماذا قلت ؟! هل سأتولى قيادة خط (بارليف) حقًا ؟!

اصطنع (دافى) تلك الانتفاضة، وحدَّق فى وجه الجنرال، كما لو أنه يراه لأول مرة، ثم لعب دوره المعتاد، فى إنكار كل ما قال، والإصرار على أنه لا يذكر حرفًا واحدًا منه ..

وعبثًا، حاول الجنرال أن ينتزع منه المزيد من المعلومات، أو حتى تأكيدًا لما قاله من قبل، إلا أن الشاب ظلَّ على حاله، وأضاف إلى إصراره نظرة حائرة مرتبكة، أثارت شفقة الجنرال، وجعلته يكتفى بما حصل عليه ..

وفى مساء اليوم نفسه، تلقَّى تكليف الوزارة له بتولى قيادة الحصون الشمالية لخط (بارليف) ..

وطار الجنرال من الفرحة، وقرَّر مكافأة عرافه بألف شيكل إسرائيلى، لينفقها فى رحلته السياحية إلى (قبرص) ..

ولكن (دافى) لم ينفق قرشًا واحدًا منها فى الواقع، فما إن هبطت به الطائرة فى (قبرص)، واستقرّ فى الفندق الذى حجزته (ماجى تورز)، حتى أتى من يُحدِّد له موعدًا سريًّا، فى الجانب الغربى من الجزيرة ..

وكما تدرَّب (دافى)، استقل سيارة أجرة إلى الساحل، ومن هناك حملته حافلة عامة إلى شمال المدينة، ثم دار به زورق إلى جانبها الغربى، قبل أن يتجه إلى العنوان المحدَّد للقاء، ويطرق الباب ثلاث طرقات سريعة، ثم طرقتين متباعدتين، حسب التعليمات ..

ولثوان، خُيِّل إليه أن أحدًا لن يستجيب لطرقاته، إلا أن الباب لم يلبث أن فُتح فجأة، وأطلَّ منه وجه مألوف، يقول بابتسامة هادئة رصينة :

ـ أهلاً يا (أشرف) .. افتقدتك كثيرًا .

وكاد قلب الشاب يثب من بين ضلوعه فرحًا ..

فقد كان صاحب الكلمات هو أستاذه ومدرِّبه ..

رجل المخابرات المصرى ..

(أمجد) ..

★ ★ ★

لسبب ما ، لم يتح لنا أبدًا الحصول على التفاصيل الخاصة بذلك اللقاء ، بين (أشرف) و(أمجد) ، فى المنزل الآمن ، الذى انتقته المخابرات المصرية ، فوق ربوة خاصة ، تطلّ على البحر مباشرة ، فى (قبرص) .

ربما لأن (أمجد) ، كرجل مخابرات محترف ، لم يشأ الإفصاح عن أسلوبه الخاص فى التعامل مع عميل أرهقه العمل المتصل ، وتملّكته فكرة التقاعد المبكّر ..

أو لأن الشاب قد تلقّى ، فى ذلك الأسبوع ، الذى قضاه هناك تدريبات خاصة ، مكثفة ، ومتطوّرة على نحو لا يمكن الإفصاح عنه قط ..

ربمـــا !

ولكن الشىء المؤكَّد هو أن (أمجد) كان بارعًا للغاية فى أداء دوره ، ففى نهاية الأسبوع ، كان (دافى) قد تخلّى تمامًا عن فكرة التقاعد هذه ، وأصبح ، على العكس تمامًا مفعمًا بالنشاط والحماس ، ومستعدًّا لقضاء ما تبقَّى من عمره ، فى أداء دور العرّاف هذا ..

وعندما تصافحا فى نهاية لقائهما ، ونهاية تلك الدورة التدريبية المكثفة ، التقت عيونهما بضع لحظات فى صمت ، حمل ما تعجز عن وصفه الكلمات ، قبل أن يربت (أمجد) على كتف الشاب ، قائلاً :

ـ (مصر) ما زالت بحاجة إليك يا (أشرف) .

ولم يُعلق الشاب بحرف واحد ..

فقط سرت فى جسده ارتجافة خاصة ، يفهمها كل من غرق يومًا فى شعور وطنى جارف ، وتجمَّعت فى عينيه الواسعتين دمعة كبيرة ، أسرع يشيح بوجهه لإخفائها ، وهو يُغادر المكان ، وكل ذرة فى كيانه تختلج ..

وبعد ساعات قليلة ، كانت الطائرة تحمله ، مع باقى فـوج (ماجى تورز) ، عائدة إلى (تل أبيب) ..

وبينما تُحلّق الطائرة فى سماء (قبرص) ، ربت (ويليـام) على كتف (أمجد) ، وهو يقول فى خفوت :

ـ لقد لعبت دورك كما ينبغى يا رجل .

أومأ (أمجد) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ المهم أن يلعب هو دوره كما ينبغى ..

صمت (ويليام) بضع لحظات ، قبل أن يسأله :

ـ ما الذى تتوقّعه منه فى المرحلة القادمة ؟!

أجابه (أمجد) فى حزم :

ـ الكثير .

وصمت بدوره لحظة ، ثم لم يلبث أن أضاف بحزم أكثر :

ـ الوقت يمضى فى سرعة ، وساعة الصفر تقترب وعلينـا جميعًا أن نبذل جهدًا أكبر .. أكبر بكثير ..

فى تلك الفترة ، فى أواخر ١٩٧١م ، كـان الرئيس (السادات) يؤكِّد أن الحسم قريب جـدًا ، حتى إن الكل راح يتأهب لمعركـة قادمـة ..

ولأن هذا هو الانطباع الذى وصل إلى الشاب ، خلال أسبوع التدريب المُكثَّف ، فقد عاد إلى (إسرائيل) وكله حماس ، لجمـع أكبر قدر من المعلومات العسكرية والاقتصادية ..

ثم إنه كانت لديـه وظيفـة جديـدة ، ومهمـة تـدرَّب عليهـا جيِّدًا ..

إرسال واستقبال الرسائل والأوامر والتعليمات والمعلومـات ، بواسطة جهاز اتصال لاسلكى ، أخفاه رجال المخـابرات المصريـة بمهارة فـذَّة فى حقيبته الوحيدة ، التى ذهب وعاد بها مـن (قبرص) ..

ولأنه لم يكن ، حتى تلك الفترة ، قد حصل علـى مسكن مستقل فـى (إسرائيل) ، فقـد كـان مـن الضرورى أن يجد مكانًا مناسبًا ، لإخفاء جهـاز الاتصـال اللاسلكى ، واستخدامه وقتما يشاء ..

وفى الظروف المعتادة ، كان ينبغى أن يسعى لاستئجار مسكن خاص صغير ، فى أطراف المدينــة ، بحيث لا يشعر أحد بمـا يفعل ..

ولكن رجل المخابرات المصرى (أمجد) كانت لديه خطـة أخرى ..

خطة جديدة .. وجريئة ..

للغـاية !

★ ★ ★

١٠ - (القاهرة) تنادى ..

فى مذكرات أحد قادة المخابرات الإسرائيلية السابقين ، التى نشرت مؤخرًا ، أشار الرجل إلى أن (الموساد) قد أدرك وجود تسرُّب فـى المعلومـات ، الخاصـة باستحكامات خـط (بـارليف) ، وأن أجهزة اعتراضـه قد التقطت يومًـا بالمصادفة بثًّا لاسلكيًّا مشفَّرًا ، رجحت أنـه موجَّـه إلـى (مصـر) ، إلا أنهـم قد عجزوا تمامًا عن تحديد مصـدره ، أو كشـف الثغرة ، التى تتسرَّب منها المعلومـات ، قبيـل حرب أكتوبر ١٩٧٣م ..

الشىء الذى لم يدركه رجل المخابرات الإسرائيلى ، والـذى ربما لن يُدركه ، حتى يقرأ هذه السطور ، هو أن تلك الثغرة الضخمة كانت تأتى من منزل الجنرال (كوهين) ، قائد شمال خط (بارليف) نفسه ..

هذا لأن خطة (أمجد) كانت جريئة للغاية ..

لقد وضع (دافى) جهـاز الاتصال اللاسلكى ، الذى حصـل عليه من المخـابرات المصرية ، فى جزء خفى من حجرتـه

الصغيرة ، التى يقيم فيها بصفة شبه دائمة ، فى منزل الجنرال (كوهين) ..

وعلى الرغم من أن الجنرال الإسرائيلى قد أصبح يقضى أسبوعين من كل شهر ، فى قلب استحكامات خط (بارليف) ، إلا إنه أصرَّ على أن يواصل (دافى) الإقامة فى منزله ، حتى تحظى زوجته بحيوان أليف ، تتباهى به أمام صديقاتها ، فى حفلاتهن المنزلية المحدودة ..

وكان هذا الدور يناسب (دافى) تمامًا ..

ففى ليال عدة ، وبعد أن يخلد الكل للنوم ، كان هو يجلس أمام جهاز الاتصال اللاسلكى ؛ ليبث بعض المعلومات الجديدة ، أو يستقبل بعض الطلبات ، والتعليمات ..

وعلى مدى عام كامل أو يزيد ، راحت رسائله تُغرق المخابرات المصرية بالمعلومات المهمة ، التى كان لها أكبر الأثر فى معرفة خفايا وتفاصيل خط (بارليف) ، ووسائل دفاعه واستحكاماته ، وإعداد ضباطه وجنوده ، وكلها معلومات حصل عليها الشاب بأذنيه وعقله ، من خلال

أحاديث مسترسلة ، على لسان الجنرال (كوهين) ورفاقه ، فى حفلاتهم ومجالسهم الخاصة ..

وحتى بعد أن أصبح أحد أهم جواسيس (مصر) ، فى قلب (إسرائيل) ، ظلّ الشاب على نفس بساطته وهدوئه ، يكتفى بالصمت والسكون والإنصات ، وينكمش دومًا فى ضعف واستكانة ، بحيث لايثير أدنى شعور بالشك أو القلق ، أو حتى الاهتمام ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من وجوده وسط عشرات الحسناوات ، من أجمل فاتنات المجتمع الإسرائيلى ، لم يشعر بلسعة الحب مرة واحدة ، فى خلال مهمته كلها ..

صحيح أنه شاب ، فى مقتبل العمر ، وأن العديدات قد انبهرن بموهبته المزعومة ، وسعين للارتباط به ، مستخدمات كل سحرهن وعطر أنوثتهن ، إلا أن قلبه لم يخفق لإحداهن قط ، وكأنما صنع بينه وبينهن حاجزًا خفيًا عجيبًا ..

ربما لأنهن إسرائيليات ، أو لأن قلبه كان منشغلاً ، منذ سنوات طوال ، بحب واحد ، ملأ شغاف قلبه ، واحتلّ كل حجراته وخلاياه ، فلم يترك به خلية واحدة ، تكفى لحب آخر ..

(وفاء) .. ابنة عمه ، التى تصغره بعام واحد ، والتى لم تتوقّف أسبوعًا واحدًا عن مراسلته ، طوال السنوات الخمس الأولى ، من سفره مع جده إلى (أوكرانيا) ..

ثم كشف جده خطاباتها إليه ، وخطاباته إليها ، فغضب ، وثار ، وسجنه ثلاثة أشهر كاملة فى حجرته ، منعه خلالها من إرسال أو استقبال أية خطابات أو رسائل ..

ولكن الشاب تظاهر بالخضوع والرضوخ فحسب ، ولم يكد يتحرّر من أسره ، حتى عاد يرسل إلى ابنة عمه ، يشرح لها الموقف ، ويُطالبها بإرسال خطاباتها إلى عنوان زميل من زملاء دراسته ..

ونظرًا لتعقّد الأمور ، تباعدت خطاباتها ، وأصبحت شهرية ، ثم ربع سنوية ، إلى أن انقطعت رسائلها تمامًا ..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسى ، الذى دفعه إلى التخطيط للفرار من الحاجز الحديدى ، إلى (مصر) ، دون أن يدرى بالكارثة التى أصابت أسرته هناك ..

وطوال تلك الفترة ، وعلى الرغم من كل ما واجهه وعاناه ، لم ينس (وفاء) قط ..

صورتها انحفرت فى ذهنه وقلبه ، ولم يتوقّف عن التفكير فيها قط ، حتى فى قلب أكثر حفلات الجنرالات صخبًا ..

حتى عندما كان يبث رسائله إلى (القاهرة) ، كان كثيرًا ما يسأل عن أخبار (وفاء) ، التى وعده (أمجد) بالبحث عنها ، وجمع كل المعلومات الممكنة عن اختفائها ، بعد انهيار منزل أسرتها ..

ومع كل رسالة تصل من (القاهرة) ، كان قلبه يختلج بين ضلوعه فى لهفة ، وهو يتمنى أن تحمل الرسالة شيئًا من أخبارها ..

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث قط ..

وبقيت (وفاء) مجرد ذكرى شباب وصبا ، وحلم حب ملأ الشغاف والوجدان .. حب لم يدانه سوى حبه لمعشوقته الأولى .. (مصر) ..

من أجلها يبذل كل هذا الكد والجهد ، ويواجه خطر انكشاف أمره فى كل يوم ..

بل وكل لحظة ..

وفى تلك الليلة ، من ليالى ديسمبر ١٩٧٢م ، وبعد أن تجاوزت عقارب الساعة الثالثة ، وضع معطفًا سميكًا على جسده النحيل ، واخرج جهاز الاتصال اللاسلكى ، وراح يستعد لاستقبال تعليمات جديدة من (القاهرة) ، وقلبه يختلج بين ضلوعه كالمعتاد ..

وفى الثالثة وسبع عشرة دقيقة ، بدأت الرسالة تصل ..

وبكل حواسه ، انهمك فى كتابة الرسالة الواردة ، وهو ينصب إليها بكل انتباهه ، و ....

وفجأة ! طرق أحدهم باب حجرته ..

وتجمدت كل مشاعره دفعة واحدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وشمله ارتياع شديد ، وهو يستدير بكل كيانه إلى باب الحجرة ، ولم يكد يفعل ، حتى هوى قلبه بين قدميه ..

لقد كان الطارق يدير مقبض باب الحجرة بالفعل ، ليدلف إليها ، دون أن ينتظر جوابًا ..

وامتقع وجه الشاب ، حتى كاد يفقد وعيه ، وهو يتساءل فى ذعر عما يمكن أن يفعله ، فى مثل هذه الظروف ..

جهاز اللاسلكى موضوع على المنضدة فى وضوح ، وإلى جواره ورقة تحمل تفاصيل آخر رسالة من (القاهرة) ، والتى لم يعرف فحواها بعد ، وعلى مسافة متر واحد يقبع ذلك الكتاب ، الذى يستخدمه لحل شفرة الرسائل ..

فخ محكم للغاية ، وأدلة تكفى لإدانته بتهمة التجسس ، وبإلقائه فى السجون الإسرائيلية مدى الحياة ..

كل هذا دار فى ذهنه فى لحظة واحدة ، دار خلالها مقبض الباب ، الذى انفتح فى بطء ، فحبس الشاب أنفاسه ، و ...

ـ « (دافى) .. أأنت مستيقظ ؟! » ..

ميز صوت الخادمة الحسناء الجديدة (ليليـان) ، فوثـب بكل سرعته وقوته إلى البـاب ، وأمسك المقبض بكـل قوتـه وهتف وهو يلهث ، من فرط الانفعال والتوتر :

ـ ماذا تريدين ؟!

حاولت أن تدفع الباب ، وهى تقول فى دلال :

ـ أريدك أن تشهد ثوب نومى الجديد .

دفع الباب بدوره فى إصرار وتوتر ، قائلاً :

ـ فيما بعد .. ليس الليلة .. فيما بعد .

أغلق الباب فى وجهها بعنف ، وأوصـده مـن الداخـل فـى إحكام ، وسمعها تهتف من الخارج فى غضب :

ـ أيها الجلف الوقح .

تجاهلها تمامًا ، وهو يلقى جسده على طرف فراشـه ، ويلهث فى عنف ، فى حين واصلت هى هتافها الخـافت السـاخط ، وهى تبتعد عن المكان ..

ومـا إن التقط أنفاسـه ، واستعاد جأشـه ، حتـى هبَّ فـى سرعة ؛ ليترجم شفرة رسالة (القاهرة) ..

كانت رسالة صغيرة قصيرة ، على عكس الرسائل السـابقة ، ولكنها كانت تطلب منه أمرًا خطيرًا ..

خطيرًا للغاية .

★ ★ ★

١١ ـ خـط النـار ..

ارتفعت ضحكات الجنرال (كوهين) عاليـة مجلجلـة ، تتردَّد فى منزله كله ، عند عودته من الجبهة ، وعلى عكس كل مـا تقتضيه قواعد الأمن والعقل ، راح يروى لزوجته وأولاده متاعبه فى إدارة الحصون الشمالية لخط (بـارليف) ، وأوجـه النقص والقصور فيها ، علـى مسمع مـن الخـدم ، ومن (دافى) ، الذى اعتاد الكل التعامل وكأنه لا وجود لـه ، فلا يشعر أحد بحذر أو خجل أو حرج مـن وجـوده ، حتّى إن (دافى) كان يصف نفسـه فـى تقاريره ، التـى يرسلها إلـى (القـاهرة) ، باعتباره الرجل الخفـى ، أو الشـفاف ، الـذى لا يبالى به أحد ..

وكانت هذه الصفة تسعد (القاهرة) كثيرًا ، إذ إنها تمنح رجلها حق الاستماع لكل ما يقـال ، والاطلاع على كل ما يقع أو يحدث ، دون شك أو قلق ..

وفى ذلك اليوم ، اكتفى (دافى) كعـادته بمتابعـة حديث الجنرال مع أسرته ، وزهوه بسلطاته ، وسطوته ، وحساسية منصبة ، ثم لم يلبث أن تحدّث فجأة بهدوء شديد ، متسائلاً :

ـ تُرى كيف يبدو خط (بارليف) هذا من الداخل ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى سـاد صـمت تام مفاجئ ، والتفتت العيون كلها إليه دفعة واحدة ، وتركزت على وجهـه النحيل وجسده الضئيل ، علـى نحو جعل قشعريرة بـاردة كـالثلج تسرى فى جسده ، وجعله يتصوَّر أن سؤاله هذا قد هتك ستره ، وكشـف أمره ، وأعلن مـا أخفـاه طـوال كـل هـذه السنوات ، وخاصة عندما هتف الجنرال بصوته الجهورى :

ـ ولماذا تسأل ؟!

امتقع وجه الشاب ، وشحب أكثر وأكثر ، حتى بدا شكله بائسًا ، يدعو للعطف والشفقة ، وهو ينكمش فى مقعده ، قائلاً :

ـ إنها مجرَّد فكرة قفزت إلى رأسى .

تبادلت الزوجة نظرة سريعـة مع زوجها ، قبل أن تنتقل إلى مقعد قريب من (دافى) ، وتسأله فى لهفة :

ـ مجرَّد فكرة ، أم وحى مرَّ برأسك .

انتبه فورًا إلى منظورهم للأمـر ، فتراجع فى مقعده ، وتظاهر بشىء من الشرود ، وهو يُغمغم :

ـ خط (بارليف) .. الجنرال (كوهين).. التاريخ .

ثم انتفض بغتة ، وحدَّق فى وجوههم جميعًا ، قبل أن يعُاود الانكماش فى مقعده ، متسائلاً فى لهجة أقرب إلى الذعر :

ـ هل .. هل قلت شيئًا ما ؟!

وكالمعتاد ، لم ينجح أيهم فى انتزاع كلمة واحدة منه ، أو حتى تأكيد لما قاله ، وتركهم وهم يضربون أخماسًا فى أسداس ، فى محاولة لتفسير الكلمات ، التى ألقاها بذكاء يُحسد عليه ..

الزوجة بالذات ، راحت تربط بين الكلمات الثلاث ، لتخرج منها بالعبارة التى ترضى غرورها وطموحها ..

خط (بارليف) سيدخل التاريخ ، تحت قيادة زوجها (كوهين) ..

ولو أن الأمر مُدبَّر ، لما سار على هذا النحو المثالى ، فقد وقر فى ذهن زوجة الجنرال (كوهين) وقلبها ، أن (دافى) سيُطلق نبوءته كاملة ، لو زار خط (بارليف) مع زوجها ..

وبكل إلحاحها ، وباستخدام ما تبقَّى لديها من أسلحة أنثوية ، أقنعت زوجها ، الذى لم يكن بحاجة إلى ضغط شديد ، باصطحاب (دافى) فى زيارة خاصة إلى حصون خط (بارليف) ..

وكان هذا بالضبط ما تنشده المخابرات المصرية ، وما طلبته من (دافى) ، فى آخر اتصال لاسلكى تلقاه ..

أن يسعى لدخول حصون خط (بارليف) ..

وبأى ثمن ..

وفى أوائل مارس ١٩٧٣م ، اصطحب الجنرال (كوهين) تابعه وعرَّافه الخاص (دافى كرينهال) ، إلى خط (بارليف) ..

وبهذه المناسبة ، ارتدى (دافـى) سـترة أنيقـة ، ذات أزرار كبيرة لامعة ، بدا فيها مضحكًا إلى حد ما ، على الرغم من أناقتها ..

ولكن هذه السترة كانت أهم شىء ، فى هذه الرحلـة العسكرية الخاصة ..

ففى قلب أحد أزرارها الكبيرة ، كانت تختفى آلة تصوير دقيقة ، تحـوى ميكروفيلمًا خاصًا ؛ لالتقـاط كـل الصـور الممكنة لخط (بارليف) ، وبواسطتها جمع الشاب كمية من الصور والمعلومات ، تكفـى لكشف كل تفاصيل أقوى خط دفاعى عسكرى عرفه التاريخ ، وتضـع كافة أسراره تحت أعين وبصر المصريين ، كما لو كان نموذجًا مفتوحًا ..

وعبر عميل سرى آخر ، وبعد عودة (دافى) من الجبهة ، تم نقل كل الصور والوثائق والمعلومات إلى (القاهرة) ، حيث راح الرجال يدرسون كل سنتيمتر ، ويراجعون كل كلمة وحرف منها ، حتى تمكنوا أخيرًا من صنع نموذج مجسم ثلاثى الأبعاد لحصون خط (بارليف) ، كما تمكّن الجيش من إقامة وحدة من

وحداته بالحجم الطبيعى ؛ ليتمّ تدريب رجال الصاعقة والكوماندوز عليهـا ؛ استعدادًا ليوم الحسم الذى يقترب فى سرعة .

الجنرال (كوهين) وحده شعر بخيبة أمل ، عندما اصطحب (دافى) إلى خط (بارليف) ، متجاوزًا كل الأوامر ، وكل قواعد السرية والمنطق ، ثم لم يسفر هذا عن شىء ..

ولقد كاد الأمر يمضـى ، وينسـاه الكـل ، لـولا زيـارة مفاجئة ، أشعلت الموقف كله ، على نحو لم يتوقّعه أحد ، حتى (دافى) نفسـه ..

كـان الجنرال (كوهين) قد أنهى إجازتـه ، وعـاد إلـى الجبهة ، تاركًا (دافى) خلفه ، عندما وصل رجل المخـابرات الإسرائيلى (رافيف) فجأة إلى منزل الجنرال (كوهين) ، وطلب مقابلة (دافى كرينهال) ..

كـانت مفاجـأة حقيقـة قويـة للشـاب ، الـذى كـان يرتجـف بحق ، عندما خرج لمقابلة (رافيف) ، الذى استقبله بنظـرة صارمة باردة قائلاً :

- لماذا ذهبت إلى خط (بارليف) ؟!

لوّح الشاب بيده ، وارتجف صوته مع جسده الضئيل النحيل ، وهو يُجيب فى خوف ، لم يحاول إخفاءه :

- الجنرال طلب منى أن أصحبه إلى هناك .

زمجر (رافيف) وهو يقول :

- وهل تطيع الجنرال ، فى كل ما يأمرك به ؟

أجابه فى سرعة :

- بالتأكيد .

رمقه (رافيف) بنظره طويلة أخرى ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، قبل أن يقول ، فى شراسة واضحة :

- أظننى أحتاج لاستجوابك جيدًا ، فى مقرنا الرئيسى .

هوى قلب (دافى) بين قدميه ، وأطلّ من عينيه ذعر كبير ، وارتجف جسده فى شدة ، وهو يسأل نفسه :

- هل سيمكنه خداع جهاز كشف الكذب مرة أخرى ، كما فعل منذ عدة سنوات ، على الرغم من أنه لم يواصل التدريب على هذا قط ، منذ ذلك الحين ؟!

وبكل المقاييس ، بدا له أن هذه هى النهاية ..

نهايته ..

ولكن فجأة ، اقتحمت زوجة الجنرال الحجرة ، على نحو يوحى بأنها كانت تنصت لما يحدث فى الخارج ، وبدت أشبه بإعصار ثائر ، وهى تقول فى حدة :

- (دافى) لن يُغادر هذا المنزل ، إلا فى حضور الجنرال .

شدّ (رافيف) قامته ، وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

- سيِّدتى .. هذا أمر يخص الأمن القومى ، ولن أسمح بـ ...

فوجئ بها تقاطعه فى غضب هادر ، قائلة :

- هل تحاول تهديدى ؟! فليكن يا رجل المخابرات .. أنا أعرف من يمكنه وضعك فى حجمك الصحيح .

قالتها ، واختطفت سمَّاعة الهاتف ؛ لتتصل فورًا بنائب رئيس المخابرات الإسرائيلية ، الذى يعد ضيفًا دائمًا فى حفلاتها ..

وبمنتهى الحنق والغضب ، غادر (رافيف) المنزل ، مع أوامر من رئيسه بعدم التعرُّض للمدعو (دافى كرينهال) مرة أخرى ، إلا بموافقة الجنرال (كوهين) نفسه ..

وكان هذا أكبر تأمين حصل عليه الشاب فى عمليته كلها ، وأكبر وسيلة تأمين منحته إياها المجاملات الأمنية الإسرائيلية ، فعاد يواصل عمله بمنتهى النشاط والحماس ، ويرسل المزيد والمزيد من المعلومات ، حتى استقبل ذات ليلة ، رسالة عاجلة ومهمة للغاية من (القاهرة) ..

رسالة تطلب منه مغادرة (تل أبيب) ، و(إسرائيل) كلها ..

فورًا ..

* * *

١٢ ـ الرحلة الأخيرة ..

كانت ليلة باردة ، من ليالى سبتمبر ، عندما وصلت تلك الرسالة العاجلة من (القاهرة) ، عبر جهاز الاستقبال اللاسلكى ؛ لتطالب (دافى) بمغادرة (إسرائيل) فورًا ، وتمنحه رقم هاتف للاتصال به ، فى نفس ساعة استقبال الرسالة ..

ولقد أقلق هذا (دافى) كثيرًا ، إذ إن الرسالة قد وصلته ، فى الفترة التى يكون فيها الجنرال (كوهين) على الجبهة ، وأوامر هذا الأخير ألا يذهب هو إلى أى مكان ، دون الحصول على موافقته ..

ثم إنه لم يفهم سر السرعة والتعجُّل ، ما دامت الأمور كلها هادئة ومستقرة ، وكل جنرالات (إسرائيل) يؤكدون أن المصريين لا يفكرون مطلقًا فى شن أية حروب على (إسرائيل) ، فى الشهور القادمة على الأقل ..

ولكنه أطاع أوامر (القاهرة) دون مناقشة ، والتقط سمَّاعة الهاتف ، فى الثالثة والربع صباحًا ، ليتصل بالرقم الذى ورد فى الرسالة ..

ولدهشته ، لم يكد الهاتف يُطلـق رنينـه الأول ، علـى الطرف الآخر ، حتى التقط أحدهم السمَّاعة فى سرعة ، وكأنما ينتظر هذا الاتصال بالذات ، وقال :

ـ صباح سعيد .

كانت هذه هى العبارة المتفق عليها فى الرسالة ؛ لذا فقد أجاب (دافى) فى خفوت حذر :

ـ صباح مشرق .. لقد طلبوا منى الاتصال بك .

قال المتحدّث عند الطرف الآخر فى حزم :

ـ غدًا .. السابعة صباحًا .. شارع (بن جوريـون) .. سيارة فورد زرقاء .. رقمها ....

سجّل الشاب كل حرف فى ذاكرته ، وأنهى الاتصال ، ثم راح ينفذ باقى ما ورد بالرسالة ، بمنتهى الدقة والإتقان ، وكما تدرّب تمامًا فى (قبرص) ..

فكّ جهاز الاتصال اللاسلكى ، وحوّلـه إلى ثلاث قطـع منفصلة ، ألقاها فى حقيبتـه الصغيرة ، ثم أفرغ زجاجتى

الحبر السرى والمظهر فى الحوض ، وقام بحرق بعض أوراق الكربون الأبيض ، وتخلّص من كتاب الشفرة ، ثم ترك كل ملابسه ، فيما عدا ما ارتداه ، وتلك السترة ذات الأزرار الكبيرة اللامعة ، وتسلّل من منزل الجنرال (كوهين) ، مع نسمات الفجر الأولى ..

وفى تمام السابعة ، كان يدلف إلى تلك الفورد الزرقاء ، فى شارع (بن جوريون) ، والتى لم يكد يستقر داخلها ، حتى انطلقت به فورًا إلى المطار ..

وفى الثامنة والربع ، كان يستقل واحدة من طائرات شركة (العال) الإسرائيلية ، ضمن فوج سياحى من (ماجى تورز) ، فى طريقه إلى (روما) ..

وطوال رحلته ، حاول (دافى) أن يجد تفسيرًا لما يحدث ، ولهذا الأسلوب البوليسى العجيب لإخراجه من (إسرائيل) ، على الرغم من إمكانية القيام بالعمل نفسه ، عن طريق انضمامه لفوج سياحى ، كما حدث من قبل ..

ولقد أعيته الحيلة فى البحث عن الجواب ، حتى هبطت به الطائرة فى (روما) ، ووجد (أمجد) أمامه ، يبتسم فى ترحاب ومودة ، قائلاً :

ـ حمدًا للّه على السلامة يا بطل ..

لحظتها نسى كل قواعد الأمن واللياقة ، وانقض عليه يعانقه ، هاتفًا بكل فرحته وسعادته :

ـ سيِّد (أمجد) .. لا يمكنك أن تتصوَّر كم تسعدنى رؤيتك .

ألقى كل ما لديه من أسئلة على مسامع (أمجد) ، وهما يستقلان واحدة من طائرات (مصر) للطيران ، فى طريقهما إلى (القاهرة) ، ولكن (أمجد) اكتفى بابتسامة هادئة ، دون أن يجيب تساؤلاته قط ..

ولكن الأحداث منحته نصف الجواب ، عندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، بعد عودته إلى (القاهرة) بأسبوع واحد ، وعندما شاهد قواتنا تجتاح خط (بارليف) ، وتسحقه سحقًا ، وترفع فوقه علم (مصر) .

لحظتها أدرك أنهم قد أخرجوه من (إسرائيل) لتأمينه ، حتى لا ينكشف مصدر ما حصلوا عليه من معلومات عن خط (بارليف) ، عندما تندلع الحرب ..

وعندما التقى به (أمجد) ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، بعد وقف إطلاق النار ، فى الرابع والعشرين من أكتوبر ، فسَّر له الجزء الناقص من الغموض ، قائلاً :

ـ كنا نحتاج إلى كل ما ترسله من معلومات ، فى الأيام الأخيرة قبل الحرب ، وكان من الخطأ إخراجك من (إسرائيل) ، أثناء إجازة الجنرال (كوهين) ؛ لأن كل دقيقة تقضيها فى منزله قد تعنى معلومة جديدة مفيدة ، وعندما عاد إلى الجبهة ، كان الوقت المتبقى قليلاً ، وكان من الخطر إضاعة أية ساعة ، فى محاولة إقناع زوجة الجنرال العنيدة بالموافقة على سفرك ، فى ذلك الفوج السياحى إلى (روما) ؛ لذا لم يكن هناك مفرّ من أن تغادر بهذا الأسلوب البوليسى .

سأله (أشرف) فى اهتمام :

ـ وماذا فعلوا ، عندما اختفيت هكذا فجأة ؟!

ابتسم (أمجد) ، قائلاً :

ـ تصوَّروا أنك قد مللت لعبة القط الأليف ، وفررت للبحث عن استقلالية وخصوصية .

صمت (أشرف) لحظة ، ثم سأل فى اهتمام أكثر :

ـ هل تعتقد أنهم سيدركون ما فعلته ؟!

ضحك (أمجد) ، قائلاً :

ـ إن عاجلاً أو آجلاً ، دون أدنى شك .

ثم هزّ كتفيه ، مستطردًا :

ـ ولكن أيعنيك هذا ؟!

ـ مطلقًا .

نهض (أمجد) من خلف مكتبه ، وربت على كتفه ، قائلاً :

ـ الواقع أن ما قمت به كان عملاً بطوليًا حقيقيًا يا (أشرف) .

غمغم الشاب فى خجل :

ـ لقد فعلت ما أملاه علىّ واجبى فحسب .

قال (أمجد) :

ـ هذا صحيح ، ولكنك تستحق مكافأة خاصة ، على ما احتملته طوال تلك السنوات .

قال (أشرف) فى حماس :

ـ لقد سلمونى راتبى كاملاً ، عن الفترة كلها ، ولدى الآن شقة جميلة ، فى (مصر الجديدة) ، تم تأثيثها بالكامل ، وسيارة صغيرة ، ووظيفة ممتازة فى ....

قاطعه (أمجد) ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، ويربت على كتفه مرة أخرى ، فى مودّة شديدة :

ـ إننى أتحدّث عما ينقص الصورة يا رجل .. عن المكافأة التى يمكننى تقديمها لك بصفة شخصية .

ثم اتجه نحو باب الحجرة الملحقة بمكتبه ، وفتحه ، وهو يكمل :

ـ قل لى ، ما الذى كنت تبحث عنه بإصرار ، طوال كل السنوات الماضية ..

اتّسعت عينا (أشرف) عن آخرهما ، وخفق قلبه فى قوة لم يعهدها من قبل ، وهو يُحدق فى تلك الشابة الفاتنة الرقيقة ، ذات الفم الدقيق والعينين الواسعتين ، والتى ظهرت عبر الباب المفتوح ، وتضرّج وجهها بحمرتى الخجل والسعادة ، وهى تقول :

- حمدًا لله على سلامتك يا (أشرف) .

بكل مشـاعره ، وانفعالاته ، وحبـه ، وشوقه ، وأحلامه ، وذكرياته ، وفرحتـه ، وجد نفسه يندفع نحوها ، صارخًا بالاسم الذى يعشقه حتى النخاع :

- (وفـاء) !

ومن المؤكد أنهـا كانت أسـعد لحظة فى حياتهما كلهـا ، فهذا مـا أعلنت عنـه دموعهمـا ، وفرحتهمـا ، وأصابعهمـا المتعانقة فى شوق وحـب ولهفـة ؛ لـذا فقد أشاح (أمجد) بوجهه ، ليخفى تأثُّره ، وابتسـامته الحانية ، وهو واثق فى أعماقه أنـه يشـهد بداية حيـاة جديـدة ، انتهى فيها دور (دافى كرينهال) ، لتوضع اللبنة الأولى لأسرة جديدة ..

تمت بحمد الله

موسوعة الجاسوسية :

المخابرات العلمية والتقنية

هى المخابرات المسئولة عن متابعـة الأبحـاث ، والتقدم العلمى والتقنى الأجنبى ، بكـل ما يتضمنه من تطـوير فى الأبحـاث الأساسـية وتطبيقاتهـا ، وقـدرات وحـدود النظم العسكرية ، وتطوير الأسلحة والمـواد ألاخـرى ، الصناعية والتصنيعية ، فى الـدول الأجنبية ، كوسيلة للحصول على إنذار مبكِّر ، عن حصول الخصوم الحاليين أو المحتملين على أسلحة أو وسائل جديدة .

ولقد ظهرت المخابرات العلميـة لأول مـرة ، فى الحرب العالمية الثانية ، لمتابعة عملية تطوير الأسلحة النـازية ، على يد العالم البريطانى (ر. ف . جونـز) ، والـذى أصدر فى عـام ١٩٧٨م ، تحفتـه الرائعـة (الحرب السـاحرة) ، والتى حدَّد فيها الخطوط العريضة ، عن كيفية نشوء سلاح جديد ، من خلال :

١ ـ بحث علمى عام ، ذو طبيعة أكاديمية أو تجارية .

٢ ـ شخص ذو صلة وثيقة ، مع جهاز مخابرات ، أو جهاز خدمة عسكرية ، وعلى وعى تام بمتطلبات هذه الأجهزة ، ويدرس كيفية تطبيق نتائج الأبحاث الأكاديمية ، فى مجالات عسكرية .

٣ ـ إجراء بحث خاص ، ومحاولات صغيرة نسبيًا ، فى المعاملة العسكرية ، حول ما تم التوصل إليه أكاديميًا .

٤ ـ توسع المحاولات والتجارب ، والوصول إلى نتائج أوّلية ، توحى بالأهمية فى المجال العسكرى .

٥ ـ تبنى الأجهزة المعنية موضوع البحث ، وتطويره عسكريًا .

ولقد أشار دكتور (جونز) إلى أن المرحلة الأولى ، تندرج تحت بند المعلومة العامة ، التى يمكن للكل معرفتها ، أما المراحل التالية ، فالوسيلة الوحيدة لمعرفتها هى

التجسُّس ، وكشف الأمر من خلال المتابعة ، أو من تصرف طائش ، من بعض العاملين فى البحث .

ولقد كان دكتور (جونز) رئيسًا للمخابرات العلمية ، للسلاح الجوى البريطانى ، ومستشارًا علميًا للمخابرات البريطانية السرية (M16) ، فى الفترة من ١٩٣٩م ، وحتى ١٩٤٦م .

غ غ غ

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس





د. نبيل فاروق



صراع العقول

الذى يتفوق

دومًا على أعتى

الأسلحة والمعدات



الثمن فى مصر ٣٠٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٤٤٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

فاكس ٦٨٢٧٠٠٢

مطابع

